الفصل الخامس

المدن

نحن آخذون في التحول سريعاً إلى كوكب من سكان المدن. والمعروف عن المدن أنها تجتذب الشباب، والموهوبين، والطموحين. وقد أدت ثورة وسائل الاتصالات وتوسع السفر بالطائرة إلى ربط المدن الكبرى في العالم بعضها ببعض. ويتنقل أفراد النخبة المثقفة من مختلف القوميات بين بقاع الأرض من دون بذل أي جهد، من طوكيو إلى لوس أنجلوس، بومباي، وسنغافورة. وهم يجدون في هذه المدن أسباب الراحة نفسها في الفنادق، والقنوات الإخبارية التلفزيونية نفسها، التي تبث طوال أربع وعشرين ساعة. هم يجدون وفي المباني نفسها التي تضم محالاً تجارية رفيعة المستوى، ماركات عالمية مألوفة لديهم من حقائب اليد، والعطور، والثياب، والأجهزة الإلكترونية. وهم في القاعة المخصصة لركاب درجة رجال الأعمال في المطار، محاطون بأشخاص مثلهم تماماً ممن يقومون بتأسيس بنيان عالمنا الذي يزداد توجهاً نحو العولمة.

كما تجتذب المدن اليائسين. فالملايين من فقراء العالم يرحلون عن أراضيهم وخارج قراهم بسبب قحط المحاصيل، ويتم إخلاؤهم عن موطنهم بسبب دمج الأراضي الزراعية لإفساح المجال أمام عمليات التصنيع الزراعي والمشروعات الإنمائية كالسدود التي تغرق أودية بأكملها، وبسبب تفاقم النزاعات العنيفة. وهم في المدن، ينضمون إلى الملايين من سكان الأحياء الشعبية الفقيرة الذين يخوضون سابقاً صراعاً يومياً من أجل البقاء.

في عام 1950، ومن بين ما مجموعه (2.5) ملياري ونصف المليار نسمة من عدد سكان العالم، عاش (731) مليون شخص أو (29) بالمئة منهم في المدن. ويتوقع بحلول عام (2030) أن يبلغ عدد سكان كوكب الأرض رقماً كبيراً جداً يصل إلى (8.2) مليارات مع وجود (4.9)

ملايين شخص أو (60) بالمئة يعيشون في المدن[1]. وفي أثناء ثمانين عاماً ستكون نسبة عدد الأشخاص الذين يقطنون المدن قد بلغت أكثر من الضعف، وستكون نسبة سكان الحضر إلى سكان الريف قد انقلبت رأساً على عقب.

وفي المدن القائمة على سطح كوكب الأرض يتصادم الغنى والرخاء مع العوز والفاقة؛ وليس هناك من مكان يصح فيه هذا الكلام أكثر من الهند. وتضم الهند سبع مدن يبلغ عدد سكانها أكثر من (4) ملايين نسمة، وخمساً وثلاثين مدينة يبلغ عدد سكانها أكثر من مليونٍ واحدٍ. وتشكل مدن الهند ثاني أكبر نظام حضري في العالم بعد الصين. وهو نظام حضري يعاني أزمة. وتعاني مدن الهند الإهمال على مدى عشرات السنين، و الفساد المستشري، والبنية التحتية القاصرة، والتنمية غير المنتظمة. وقد تقاطر الملايين من المواطنين الهنود الأكثر فقراً إلى مدن البلاد، حيث يوجدون وبموارد شحيحة، سبلاً للعيش، ومجتمعات محلية تنبض بالحياة مثل حي دهاراقي الشعبي في بومباي، وهو أشبه بخلية نحل، تعج بالصناعات المنزلية، ومساكن صغيرة جداً، حيث تعيش الأُسر وتعمل وتلعب بعضها فوق بعض، بكل معنى الكلمة تقريباً. ولسوء الحظ فإن العديد من هذه المجتمعات هي أحياء فقيرة قذرة، تفتقر حتى إلى التدابير الصحية الأساسية، فضلاً عن أسباب الراحة. وتصنف الأمم المتحدة (40) بالمئة من سكان الهند الحضريين على أنهم فقراء[2].

في غضون ذلك تجتذب الطفرة الاقتصادية للبلاد المئات من الشركات التي تمتلك مصالح في أكثر من دولة، وتدفع الشركات الهندية باتجاه بلوغ مستويات أعلى حتى من المنافسة والاحتراف. وتتطلب هذه المشروعات التجارية الجديدة وجود مجمعات أبنية مكاتب جديدة وأنيقة، ومرافق للبحوث العلمية والدراسات التنموية مجهزة بشكل جيد، ومعامل صناعية حديثة. ويتطلب وجود الموظفين المتعلمين فيها، الذين يتلقون رواتب سخية، مدارس جيدة، والحصول على العناية الطبية الجيدة، والمسكن المريح. كما تزدهر المجمعات التجارية، والجسور العلوية المستخدمة لتحويل حركة المرور بعيداً عن ازدحام السير في المدن، كما أنهم يتطلبون وجود مناطق محاطة بأسوار، حيث يمكن للأغنياء أن يجدوا قسطاً من الراحة بعيداً عن الفوضى العمرانية.

إعادة إعمار مدن الهند

لقد بدأت الهند بتنفيذ مشروع طموح لإحداث تحول في مدنها. ففي شهر كانون الأول من عام (2005)، أعلن رئيس الوزراء مانموهان سينغ عن بدء تنفيذ برنامج جواهر لال نهرو الوطني لتحديث المناطق الحضرية (Jawaharlal Nehru National Urban Renewal Mission (JNNURM)، متعهداً بتخصيص مبلغ (28) مليار دولار ضمن صناديق تمويل وطنية من أجل إجراء تغييرات واسعة النطاق في ست وثلاثين مدينة هندية. وسوف يكون مستقبل الهند منوطاً بنجاح هذا الجهد غير المسبوق. ومن دون وجود مدن فاعلة، فإن حلم الهند بأن تصبح دولة نامية، وِنداً للصين، أوروبة أو الولايات المتحدة لن يرى النور في النهاية. وتعي حكومة الهند هذا الأمر بشدة. فقد أكد رئيس الوزراء في الكلمة الافتتاحية لإعلان بدء تنفيذ البرنامج الوطني لتحديث المناطق الحضرية، إن التركيز في عملية إعادة تأهيل المدن الهندية يجب أن ينصبَّ على حاجات الفقراء في المدن.[3] وما زال من غير المؤكد ما إذا كانت الهند سوف تحقق هذه الرؤية الشاملة لإحداث نقلة نوعية في مدن البلاد. غير أنه إذا كان بمقدور الهند أن تواجه هذا التحدي، فإنها ستحقق شيئاً لم يكن بمقدور أي نظام ديمقراطي آخر أن يحققه: إنشاء مدن كبرى يجري فيها نفي الفقراء إلى أطرافها النائية، بإمكان السكان ممن يمتلكون كل الوسائل الاقتصادية أن يعيشوا حياة لائقة بوصفهم مواطنين مشاركين بالكامل في المجتمع. وتمتلك مدن الهند الإمكانية لتصبح القدوة للعواصم الآخذة بالازدهار بسرعة في أماكن أخرى من العالم النامي. وقد تعطي أيضاً دروساً للعالم الصناعي حيث تكون عادة ما يسفر تهميش المحتاجين اقتصادياً، ومعظمهم من السلالات الاثنية والعرقية، عن أعمال عنف دائمة.

كانت حيدر أباد إحدى أولى المدن التي قامت بترميم مركزها العمراني، وبتوسيع طرقاتها، لتخليص أرصفتها من الباعة والمتسوِّلين، واستبدال المباني القديمة المتصدعة بمبانٍ شاهقة حديثة. وقد شرعت مدينة كالكوتا وتشيناي، وبنغالور، وأحمد آباد ومجموعة من المدن الهندية الكبيرة والصغيرة في تنفيذ مشروعاتها الخاصة بالتحديث والتطوير. وتدرك مدن الهند أنها تتنافس حالياً مع بعضها لاستقطاب الاستثمار الأجنبي والمحلي. كما

تعمل المدن على الاستفادة من البرنامج الوطني لتحديث المناطق الحضرية، فتنهمك المدن في تقديم الخطط والمقترحات إلى الحكومة الوطنية من أجل تمويلها.

التحديات

خلفت عقود الإهمال والنمو السكاني الذي دأب على تسجيل زيادة هائلة في الهند، البنية التحتية للبلاد في وضع بائس ومحطم. وهناك حالياً انتعاش كبير في سوق السيارات وإقبال شديد على اقتنائها ويجري إنشاء طرقات جديدة في كل مكان، ولكن ليس بالسرعة الكافية. ويتراجع وضع المواصلات العامة تدريجياً بصورة يرثى لها خلف حاجات الغالبية العظمى من الشعب التي لا تستطيع تحمل نفقات شراء سيارات. أما حالات الاختناق التي تشهدها حركة المرور ليست من الأمور السلبية الوحيدة للتوسع الاقتصادي: فنوعية الهواء في مدن الهند رهيبة. وكثيراً ما كنت أمسح وجهي بعد قضائي يوماً خارج أو حول مدينة دلهي فكان المنديل الورقي يتحول إلى اللون الأسود تعلوه ذرات صغيرة. أما الإصابة بالتهاب الحلق، والسعال، فهذه تأتي مع الأرض عند زيارة المناطق الحضرية للهند. ووفقاً لإدارة معلومات الطاقة التابعة لوزارة الطاقة الأمريكية فإن السيارات والدخان الصناعي غير المعالج يسهم في جعل الهواء في مدن الهند «من بين الأسوأ في العالم»[4]، وتحتل بومباي المرتبة الخامسة بين المدن الأكثر تلوثاً في العالم مع تعرض (97) المئة من سكانها لهواء يعجز عن الوفاء بالمقاييس التي حددتها منظمة الصحة العالمية [5].

وكما هو الحال في الريف، هناك نقص في مخزون المياه في المدن الهندية، حتى في المناطق السكنية الراقية. ويتزايد عدد السكان الذين يتم إيصال المياه إليهم بوساطة شاحنات الصهاريج، وحتى بالنسبة لأولئك المحظوظين كثيراً ليكون لديهم مضخات في منازلهم موصولة بتمديدات المياه التي تؤمنها البلدية. وليس هناك ببساطة ما يكفي من المياه في الأنابيب؛ وعندما سألت ديباك باريك رئيس الشركة المساهمة لتمويل السكن العمراني (HDFC)، أكبر شركة للقروض العقارية، عن حالات نقص المياه في مدينة بومباي: قال لي وهو جالس في مقعده في غرفة معيشته الأنيقة في منطقة كارمايكل رود في بومباي: «إننا نحصل على المياه التي يتم إيصالها بوساطة الصهاريج في هذا المكان بالضبط. ويعيش

مأمور المياه عبر الشارع، وإذا ما رأته زوجتي من الطريق المؤدي للمنزل سوف تمازحه قائلة: «سوف نأتي اليوم إلى منزلك من أجل إنجاز أعمال غسيل الثياب»، فمسألة نقص المياه تؤثر على كل إنسان في بومباي، الغني والفقير».

إن أي زائر لمدينة بومباي يُصدم بالأحياء الفقيرة الضخمة، التي تمتد بعيداً إلى ما لا نهاية بمحاذاة المطار، حيث يكاد جسم الطائرة القادمة أن يلمس السقوف المضلعة الصدئة لأعداد كبيرة من الأكواخ المزرية، قبل أن تجتاز سور الأسلاك الملتفة بعضها حول بعض في نهاية مدرج المطار. وفي المساء يملأ المتشردون كل رقعة شاغرة من الرصيف، وتغطي أشكال نائمة من أجساد الفقراء أرصفة المشاة وعتبات المباني، والأرض الجرداء القائمة تحت جسور علوية نصف مشيدة، وتستر الأمهات أجساد الرضع والأطفال الصغار داخل الجزء المتقوس من أجسادهن المنحنية حرصاً على حمايتهم، حيث لا يوجد لديهن أية وسيلة أخرى لإيوائهم. أما أولئك المحظوظون كثيراً ليتملكوا «تشاربيّ» Charpai وهو سرير بسيط مصنوع من الخشب والرفاصات المعدنية ينحشرون فيه في وضعية تبادل، تلتقي فيها الرؤوس مع أصابع الأقدام. وهناك من يقيمون في أكواخ صغيرة و«عشش» مزرية وعلى الأرصفة بجانب النوادي الاجتماعية والرياضية الفخمة وبجانب الشقق الفاخرة وبجانب الفنادق من فئة خمس نجوم.

وعلى الرغم من وجود طفرة في بناء المساكن فإن (60) بالمئة من سكان بومباي الذين يبلغ عددهم (18) مليوناً يعيشون في أحياء شعبية فقيرة أو في الشوارع؛ أي (10.8) ملايين شخص. وفي دهاراڤي Dharavi وهو أكبر الأحياء الفقيرة في بومباي هناك دورة مياه واحدة لكل ألف وخمسمئة شخص. ووفقاً للإحصاء الأخير الذي أجرته الهند في عام (2001). فإن (40) مليون شخص من سكان المدن الهندية كانوا يعيشون في أحياء فقيرة، وكانت تتوافر لدى (49.7) بالمئة فقط من الأسر التي تعيش في المناطق الحضرية مياه للشرب في دورها. وكان لدى (57.4) بالمئة فقط من السكان مرافق للصرف الصحي[6].

يعيش الأغنياء في الهند وسط قذارة لا يمكن تخيّلها، ويبدو أنها لا تسبب لهم أي قلق أو إزعاج. وتمتلك عمتي شقة جميلة قديمة بعيداً عن طريق البحر بمدينة نيابين في إحدى أكثر مناطق المدينة رفاهية. وتطل بنايتها على حديقة جديدة أنشأتها عائلة بيرلاس، إحدى

العائلات العريقة في مجال التجارة. وتقع الحديقة عند الواجهة البحرية حيث ترتطم الأمواج الهادئة لبحر العرب على الصخور الواطئة للشاطئ. وهي تفتح أبوابها من الساعة 5.30 صباحاً حتى 9.30 صباحاً، ثم تعود ثانية لتفتح في المساء. وتغلق الحديقة أبوابها بين هذه الأوقات. وهناك ممشى للسير حول منحنى بيضاوي عليه مؤشر للمسافات مسجلة بالأمتار ولا يسمح بالجري فيه، ويراقب الحراس الناس الذين يستخدمون الحديقة لضمان احترام الأنظمة والتعليمات.

من عادتي أن أقوم بالمشي صباحاً في الحديقة العامة عندما أقيم مع عمتي. وتعج الحديقة برجال في منتصف العمر يرتدون «بلوزات» ذات قبة عالية تغطي العنق، ويتحدثون عن أعمالهم على هواتفهم الخليوية، وأمهات حديثات العهد بالأمومة يرتدين أطقماً خاصة برياضة التريُض، وسيدات متقدمات في السن يرتدين لباس الساري الهندي المصنوع من القطن الباهت، ويتمسكن بذراع خادمة الأسرة. وأرض الحديقة منسّقة على نحو منتظم بصفوف مرتبة من أشجار النخيل والأزهار، التي تتبدل حسب فصول السنة. وهناك حول محيط الحديقة مقاعد حجرية منحوتة بشكل متقن.

وليس هناك من مدخل للحديقة إلى الشاطئ المجاور. ولا يمكنك في الواقع أن ترى حتى الأمواج وهي تتحطم بجانبها. فهي مخبأة خلف سور متين من الإسمنت والقضبان الحديدية، مبطن بحاجز من قضبان الخيزران. وتستخدم الصخور الموجودة بمحاذاة الشاطئ كمراحيض عامة من قبل الناس الذين يعيشون في الأحياء الفقيرة القائمة عند أي طرف من أطراف الحديقة. وبمقدور الناس الذين يسكنون المباني العالية في الجوار أن يتحملوا وبسهولة دفع تكاليف إقامة مراحيض عامة، ولكن بناء المراحيض سوف يعني الاعتراف بوجود الأحياء الفقيرة. وسوف يشجع ذلك على بقائها هناك بصورة دائمة. فالأرض التي أقيمت عليها هذه الأحياء لا تعود ملكيتها إلى الأشخاص الذين يعيشون فيها. وليس من المفروض أن يكونوا هناك على الإطلاق. ولذا فإن الأثرياء يتظاهرون بأن الأحياء الفقيرة غير موجودة، وأن الصخور التي تقع مباشرة خلف حاجز الخيزران لا تستخدم كمراحيض عامة. إن تعلم عدم رؤية الفقر المدقع في كل مكان من حولهم هو مهارة حياتية أساسية، يتمتع بها الميسورون في الهند.

عاشت أسرتي في مدينة بومباي منذ الستينيات من القرن الماضي. وكان والدي يذهب إلى الجامعة هناك، وكنت أشعر دائماً أنني في بيتي عندما أكون في المدينة. ومع ذلك، ومهما تكررت زياراتي، فإنني أعرف المدينة إلى حدٍ كافٍ تماماً، لأعرف أن هناك الكثير مما لا أعرفه عنها. ولكي أفهم بومباي من وجهة نظر ابن منتمٍ قمت بالبحث عن ناريش فيرناندیز، رئيس تحرير صحيفة «تايم آوت مومباي» «Time Out Mumbai». والتقيته في مكتبه خلف ميدان سباق الخيل في المدينة.

لا يزال ناريش يبدو في مظهره مثل المراسل الصحفي المختص بتغطية أخبار الجريمة، الذي كان عليه ذات يوم؛ متواضعاً تماماً، وشعره طويل نوعاً ما، ينتعل صندلاً مفتوحاً، ويرتدي ثياباً مجعدة من قماش الملابس العسكرية. وقد أبلغني ونحن جالسان عند طاولة دائرية الشكل في قاعة للاجتماعات نحتسي فنجاناً من القهوة: «لقد عاشت أسرتي في بومباي على الدوام. وعلى عكس الكثيرين من الناس هنا، فإنني واحد من أهل البلاد الأصليين. كان جدي يزرع قطعة أرض في هذا المكان على الرغم من المفهوم الذي ينظر به حزب شيف سينا Shiv Seena للأمور. وكانت ملاحظته الأخيرة تشير إلى الحزب السياسي الإقليمي الذي ترأسه، مدة طويلة، بال ثاكيري المفعم بالحيوية الذي أدت فاشيته المبالغ فيها إلى ترهيب وإضحاك مواطني بومباي على حد سواء. وينظر حزب شيف سينا إلى المدينة بوصفها بؤرة للرذيلة والفساد مصدرها العناصر الأجنبية – ويعني بهؤلاء الهندوس الذين لا ينتمون إلى ولاية مهاراشترا. والحزب مسؤول عن تغيير اسم المدينة من بومباي إلى مومباي، وعن تخصيص حصة من الوظائف سواء الرسمية أم غير الرسمية لمواطني ولاية مهاراشترا. إن الطابع العالمي لمدينة بومباي حيث جاءها أناس من كل أنحاء الهند والعالم، لتكون موطناً لهم هو أمر مكروه بالنسبة لحزب شيف سينا. وقد باتت صحة ثاكيري ضعيفة حالياً، وسيخلفه في زعامة الحزب ابنه اوداي ولكن يبدو من غير المرجح أن يتمكن حزب شيف سينا من أن يحكم، ولمدة طويلة، مدينة تتحول بسرعة إلى مدينة يجري تدويلها بصورة أكبر، وترهن الهند الكثير من مستقبلها بها. ومع ذلك فإن حزب شيف سينا قادر على تعبئة جمهور من الشباب لكي يقوموا بأعمال عنف في شوارع بومباي حينما يكون ذلك مناسباً لهم.

في عام 1992، وأثناء عمله مراسلاً مبتدئاً في صحيفة «تايمز أوف انديا»، قام ناريش بتغطية أحداث الشغب في بومباي التي شهدت هجمات عنيفة ضد المسلمين القاطنين في المدينة عقب تدمير مسجد «بابري» في أجوديا على يد مجموعة من الميليشيا الهندوس. وأكد القاضي بي. ان. سريكريشنا الذي رأس لجنة التحقيق في أحداث العنف في بومباي، أكد في تقريره أنه «ليس هناك من شك بأن أنصار حزبي شيف سينا وشيف ساينيسكس لعبا الدور الرئيس في تنظيم الهجمات على المسلمين وعلى ممتلكاتهم بتوجيه من عدة زعماء من مستوى شاكا براموك Shakha Pramukh إلى مستوى رئيس حزب سينا، بال ثاكيري».[7] وقال لي ناريش الذي تم إدراج تغطيته الإخبارية في تقرير نشرته صحيفة: «تايمز أوف انديا» تحت عنوان «عندما احترقت بومباي: تقرير إخباري وتعليقات على أحداث الشغب والتفجيرات»[8] قال لي: «لقد عرفت آنذاك قوة الصحافة. ذهبنا إلى المشرحة وقمنا بتعداد الجثث. وعندما كان مفوض الشرطة يبلغ عن وفاة مئة شخص، كنا قادرين على ذكر أننا رأينا خمسمئة منهم. وفي النهاية تم صرف مفوض الشرطة من الخدمة». ولشعوره بالإحباط نتيجة للتغييرات التي طرأت على إدارة الصحيفة، توجه ناريش إلى نيويورك سعياً لنيل شهادة في الصحافة من جامعة كولومبيا، حيث عمل بعدها في صحيفة «وول ستريت جورنال» Wall Street Journal. وعندما سنحت له الفرصة للبدء بإعداد نسخة من صحيفة «تايم آوت» «Time Out» في بومباي قام باقتناصها على الفور.

ويمتلك ناريش رؤية محددة بالنسبة للمجلة «إننا نعتقد أننا تولينا رعاية الروح الأصلية لمجلة «Time Out» عندما جرى تأسيسها في لندن في أعوام الستينيات –المدينة، السياسة، والثقافة– ونحن نقوم بإدارتها، كما كانت في البداية عندما كانت تتعلق بنشر أنباء عن المكان الذي يستطيع فيه الهيبيون معرفة المكان الذي ستنظم فيه المظاهرة الآتية المعارضة للحرب. نحن نرى أنفسنا بأننا لا نقدم فقط لقطة فوتوغرافية للمدينة، لكننا نطرح رأينا في أوضاع المدينة. فمثلاً بالنسبة للمواصلات العامة نحن ضد خصخصة المرافق ومؤسسات النفع العام؛ ويشعر أصحاب النفوذ في المدينة بالقلق إزاء حركة السير على طريق «بيدر رود» Pedder Road. وهم يريدون بناء جسر علوي سيجعل الحياة صعبة جداً في منطقة سكنية كبيرة. وتظهر الدراسات أن خمسين ألف شخص فقط يسافرون بالسيارة على

طريق «بيدر رود» يومياً. وهذا يساوي عدد الأشخاص النازلين من قطار واحد عند محطة «تشيرتشغيت». إن جمهور قراء المجلة هو ذلك العدد الكبير من أبناء الطبقة الوسطى. والناس الذين يرغبون في قراءة أخبارهم في الحفلات لن يجدوا أنفسهم على صفحاتنا.

وسألته عن رأيه في مستقبل بومباي فأجاب: «أنا لست متفائلاً بمستقبل هذه المدينة إطلاقاً مع أنني أحبها بشدة» وحسب رؤية فيرنانديز للوضع، فإن بومباي ضيعت فرصتها عندما أخفقت في محاولتها لتعمير أراضي المطاحن المهجورة بشكل منصف، وتبلغ مساحتها ستمئة فدان من العقارات الممتازة القائمة في وسط المدينة. وفي شهر آذار الماضي وعقب قيام تنافس حاد ما بين مجموعة «العمل البيئي لمدينة بومباي» والمنظمات المرتبطة بها وبين كبار شركات البناء في المدينة على مصير هذه الأراضي الخالية، عمدت المحكمة العليا للهند إلى الحكم لصالح شركات البناء بإلغائها لقرار سابق صادر عن المحكمة العليا لمدينة بومباي. ومع حصولهم على ضوء أخضر لإقامة منتزهات عامة تعتمد وسائل تكنولوجيا متقدمة، ومجمعات تجارية للتسوق، وفنادق فخمة، ومباني شقق سكنية، فقد عمت الفرحة شركات الإنشاءات والبناء. وقال أحد سماسرة العقارات متحمساً: «إننا بحاجة لأن نظهر للعالم أننا جادون في أن نصبح دولة مهمة لها تأثيرها عالمياً. وبقيامنا بتشييد أحدث المرافق والمنشآت سنكون قادرين على إثبات هذا الأمر».[9] إلا أن ذلك شكل ضربة مأساوية للكثيرين من أهالي مومباي المتابعين للقضية الذين رأوا في عملية التعمير المنصفة والسليمة بيئياً الفرصة الأخيرة للمدينة لاستعادة ذاتها. فقد تم خفض مساحة (400) فدان التي كان هؤلاء الناشطون المدنيون يأملون بأن تكون متوافرة من أصل المساحة الإجمالية من أجل إقامة الأماكن المفتوحة ومساكن أصحاب الدخل المحدود، تم خفضها إلى (113) فداناً وذلك بموجب قرار المحكمة العليا.

وقال فيرنانديز: «لقد كان واضحاً في عام 1995، عندما إنهارت المطاحن، إن البيئة الاجتماعية للمدينة كانت في طور الاهتراء، لأن الآلة الاقتصادية كانت قد تعطلت. وكان من الواضح بشكل كبير قبل ذلك الحين، أن تعمير مساحة ستمئة فدان في وسط المدينة التي تشغلها المطاحن الخالية كان بحاجة إلى تخطيط. وقد قال قرار المحكمة العليا أساساً: «بومباي: اذهبي إلى الجحيم! لذا فإن المدينة سائرة إلى الحضيض، والناس الذين يمتلكون

هذه الأوهام عن مستقبل الهند على أنها سوف تصبح شنغهاي أخرى، هم أشخاص فقدوا صوابهم». وتعكس كلمات ناريش الحادة والعنيفة كثافة التصورات المتنافسة بالنسبة لمدينة تشهد تغيرات مستمرة. فهناك ثروات هائلة يجري تكوينها كما يجري تغيير صورة المدينة على حساب بعض أكثر الناس فقراً في العالم، فضلاً عن ذكر الطبقة المتوسطة. وتابع ناريش قائلاً: «إن الشركات العمرانية توجه تركيزها منذ الآن إلى أرض المرفأ – مساحتها نحو ألف وثمانمئة فدان. ولو كانت أرض المرفأ قد دخلت في التنظيم نفسه مع أرض المطاحن، فإن تلك كانت ستشكل الفرصة المواتية لتحقيق انقلاب في هذه المدينة، غير أنه تم استخدام الأنظمة المقدسة للسوق مبرراً لجشع لا حدود له. وقال موضحاً الفكرة التي يقصدها: «انظري، إذا كان ستون بالمئة من العاصمة المالية للاقتصاد المزدهر لهذه البلاد، أحياء فقيرةً، نكون جميعنا قد قضي علينا. وتنهد ناريش ثم قال بلطف ولكن بسخرية لاذعة: «لقد كان يفترض بنا وفق مذهب نهرو أن نعتني بالفقراء. أما الآن فنحن غير مضطرين للقيام بذلك.

رؤية بومباي لعام 2020

ستكون بومباي بحلول عام 2020، ومع وجود (28.5) مليون شخص فيها، أكثر مدينة في العالم ازدحاماً بالسكان[10]. وسيكون ذلك أيضاً العام الذي ستستعد فيه بومباي لتحقيق هدفها بإجراء تغيير كلي في المناطق العمرانية. وقد عُرفت بومباي منذ زمن طويل على أنها مدينة «المايا» أو الوهم، والأحلام المستحيلة التي تتحقق في أفلام بوليوود، وهي نيويورك الهند. ويتقاطر الآلاف من الهنود إلى بومباي كل عام لا يحملون معهم شيئاً سوى آمالهم ويأسهم. وينضم إليهم هنود من المتعلمين والطموحين أمريكيون وأوروبيون بمن فيهم أشخاص عائدون من الشتات الهندي، مع أن ذلك يتم في ظروف مختلفة تماماً. وبين هذين الوضعين المتناقضين، وفي حين تحلق أسعار الممتلكات والعقارات إلى مستويات مرتفعة جداً ويجري استنزاف المرافق العامة الأساسية مثل وسائل النقل الجماعي، نظام الصرف الصحي والمياه بأكثر من طاقتها، تتعرض الطبقة المتوسطة لضغوط جمة.

والمدن الكبرى مثل مدينة بومباي تغوي وتصد بفعل حجمها البحت. وهي تتحدى القادمين الجدد لكي يقبلوا التحدي ويحققوا النجاح فيها. إن مرض الفصام الطبيعي يأتي مع كونك

من قاطني مدينة كبرى. فالإنسان هنا يكون شخصاً مجهولاً وعضوا في نادٍ للنخبة في الوقت نفسه. وكانت مدينة نيويورك أول مدينة تتعدى خط الـ (10) ملايين نسمة، وتصبح مدينة كبرى. «إذا كان بإمكاني أن أنجح هناك، فسوف أنجح في أي مكان» هكذا تقول كلمات الأغنية الشهيرة «نيويورك، نيويورك» وتنطوي أغنية «أنا من أهل بومباي» على معنى خاص مشابه من الكبرياء، والذكاء، وآثار معارك محلية تحقق فيها النصر المبين.[11] ويفخر سكان مدينة مومباي بمدينتهم بشدة حتى ولو كانوا ربما يكرهون عيوبها الخطيرة. وهم قادرون على قتال بعضهم بعضا، كما حدث في أثناء أحداث العنف الوحشية التي وقعت بين الهندوس والمسلمين في المدينة في عام 1992. وهم قادرون بالمثل تماماً على التوحد معاً في فورات عاطفية عفوية من الكرم والسخاء وسماحة النفس. ففي أثناء كارثة الفيضانات التي حلت بالمدينة في عام 2005، وعقب الدمار الذي أحدثته الكارثة، مد الناس أيدي المساعدة لإخوانهم المدنيين المحتاجين سواء بتقديم الطعام أو تقديم المأوى لقضاء ليلتهم فيه.

ويطرح رؤساء الشركات التجارية والمؤسسات الاقتصادية تصوراً لإحداث تحول في مدينتهم على نمط التحول الذي شهدته مدينة شنغهاي.[12] وهم يريدون تحويل بومباي، وهي الآن العاصمة المالية للهند، إلى عاصمة مالية للعالم، تنافس سنغافورة. وقد كان هذا جوهر تقرير أعدته مؤسسة ماكينزي وشركاه ومجموعة تعمل بتوجيهات من مؤسسات تجارية تسمى «بومباي أولاً». وكان عنوان التقرير «رؤية عام 2020». وقد أوجز الكيفية التي تستطيع الهند عبرها أن تحقق هذا التحول عبر إنشاء طرق جديدة، وخصخصة الخدمات، وتنظيف الأحياء الفقيرة القذرة. وفي عام 2005، أعلن رئيس الوزراء تأييده للفكرة قائلاً: إن «حلمه كان أن يرى مومباي وقد تحولت إلى مدينة مثل شنغهاي»، وتعهد بتوفير الموارد من جانب الحكومة الوطنية للبلاد دعماً لتحقيق هذا الهدف»[13].

وفي شهر آذار الماضي أصدر منتدى المديرين التنفيذيين في الهند والولايات المتحدة تقريراً بعنوان «الشراكة الاقتصادية الإستراتيجية الهندية-الأمريكية»، أوصى فيه بأن «تشارك الولايات المتحدة الهند في جعل مومباي مركزاً مالياً إقليمياً»[14]. كما يوصي التقرير في الفقرة المتعلقة بالبنى التحتية بمشاركة مؤسسات مالية وتجارية أمريكية مثل البنك الدولي من أجل تسهيل الشراكة ما بين القطاع العام والخاص والاستثمار في مجال تحسين البنية

التحتية للهند من منظور الحاجات والشركات التجارية. ولدى كل مصرف استثماري وتجاري أمريكي كبير مكاتب في بومباي حالياً. ولقد كنت على علم بالكثير من الحديث الحماسي الدائر بين الخبراء الماليين بشأن تحول بومباي إلى حلقة مهمة في نظام تجاري مالي يعمل أربعة وعشرين ساعة في الأسبوع، وتنهمر فيه الصفقات التجارية بشكل غير مرئي وبغزارة من نيويورك، إلى لندن إلى بومباي، إلى طوكيو، وعودة إلى نيويورك. إن بومباي التي يتخيلها هذا التجمع لا تمت بصلة إلى بومباي التي يعيش فيها معظم مواطني المدينة.

أكبر الأحياء الفقيرة في آسية

إن إعادة تأهيل حي دهاراڤي هي أكثر خطوة طموحاً تقوم بها بومباي من أجل إحداث تحول في المدينة ذاتها. فهناك مليون شخص محشورون داخل مساحة 535 فداناً على طول نهر ميثي، مضغوطون ما بين أحياء ماهيم وسيون. وقد كانت دهاراڤي في الأصل قرية هامدة تعيش على صيد السمك، وهي الآن مجتمع مزدهر تحتل فيه الصناعات ذات النطاق الضيق الغرف الصغيرة ذاتها التي تعيش فيها الأسر. فهنالك العاملون في دباغة الجلود، تجار الخردوات المعدنية، وصانعو الأواني الفخارية، ونساء يكدحن في البيوت ويصنعن الـ«بابداس» Papdas، وهو طعام شعبي خفيف عبارة عن رقائق من العدس المقلي. وتتلوى الممرات الضيقة ما بين منازل مؤلفة من غرفة واحدة من القرميد، مبنية بأيدي أولئك الذين يعيشون فيها. وتشق مياه الصرف الصحي القذرة طريقها بشكل ملتو عبر القرية داخل أخاديد ضحلة لتصريف مياه الأمطار. ويقفز أولاد حفاة فوقها. وترجع الرائحة الكريهة لحي ماهيم، وهو بالتأكيد أحد الأماكن الذي تنطلق منه أسوأ الروائح في العالم، ترجع وإلى حد كبير، إلى مياه المجارير غير المعالجة والسائل الناجم عن المخلفات الصناعية الذي يصب في نهر ميثي وينساب داخل خليج ماهيم.

وكان مشروع إعادة إعمار حي دهاراڤي، وهو من بنات أفكار شركة القطاع الخاص تدعى «ام.ام. للاستشارات» ويملكها موكيش ميهتا، قد حصل على الضوء الأخضر من حكومة ولاية ماهاراشترا في عام 2006. وتم استجرار عروض بقيمة (2.5) مليارين ونصف المليار دولار من شركات الإنشاءات والتطوير العمراني حول العالم. وتتبارى الشركات الهندية العملاقة «دي.

ال.اف» DLF، ايمار، وهيراندااني. وكذلك شركات من كوريا الجنوبية، وأخرى تتخذ من دبي مقراً لها، تتبارى جميعها للحصول على جزء من العمل[15]. ويجب على شركات البناء توفير شقة مساحتها 225 قدماً مربعاً لكل أسرة من أسر الحي الفقير. وسوف يمنح صاحب الشركة مقابل كل قدم مربعة يبنيها في مسكن جديد لصالح أهالي الحي الفقير، مساحة (1.33) قدم مربع مجاني ليبيعها أو ليعمرها حسبما يشاء. وتقضي الخطة الأساسية ببناء مبانٍ شققية شاهقة لإسكان القاطنين في دهاراڤي، «وإخلاء المكان لإقامة مدارس، وحدائق عامة ومستشفيات، فضلاً عن مجمعات تجارية للتسوق ودور سينما متعددة. والكثيرون من سكان دهاراڤي تساورهم الشكوك، ولا سيما أولئك الذين يصنعون رقائق العدس المتبلة والأواني الفخارية، وهما اثنتان من أكبر الصناعات في الحي الفقير. فكلاهما بحاجة إلى وجود فسحة في العراء، لتجفيف المنتج بعد الانتهاء من صنعه، ولن يشتري من يعيشون في الخلاء شققاً صغيرة جداً من شقق المباني الشاهقة. ومن أجل تحفيز التنمية الاقتصادية وتوفير المزيد من سبل العيش، التي تؤدي إلى تعزيز وضع صانعات رقائق العدس وعمال الجلود والدباغة وصانعي الأواني الفخارية الذين يتم إخلاؤهم من دهاراڤي، يجري التخطيط لإقامة منطقة اقتصادية خاصة (Special Economic Zone SEZ) تشمل صالات عرض للجلود، مؤسسة لصناعة الخزف، مصانع للمجوهرات والأحجار الكريمة وحتى شركات متخصصة بتكنولوجيا المعلومات، غير أنه ليس من الواضح عدد السكان من الحرفيين والنساء اللواتي يصنعن رقائق العدس، الذين سوف يستفيدون من هذه المنطقة فعلاً.[16]

لقد جُنت الهند بالمناطق الاقتصادية الخاصة، وأقبلت على إنشائها بشكل هستيري. وقد شجعها على ذلك نجاح الصينيين في استقطاب الاستثمارات الأجنبية وزيادة ودعم الإنتاج الصناعي في المناطق الاقتصادية الخاصة مثل منطقة Shenzhen ومدينة Suzhou الصناعية، فبات لديها حالياً ثمانٌ وعشرون منطقة مماثلة. وتعرض هذه المناطق تقديم مزايا ضريبية خاصة للشركات شريطة أن تولد إيرادات تصدير صافية. وتوفر المناطق الصناعية الهندية التي افتتحت أول مرة في عام (2002). «حرية تامة في العمل التجاري لشركات كبرى متعددة الجنسيات، تسعى إلى التوسع عالمياً في قواعد الإنتاج»[17] وتشمل الحريات التي تتيحها المناطق الصناعية الخاصة للشركات متعددة الجنسيات تمتعها بوضع مستقل عن النقابات

العمالية، فضلاً عن تزويد الشركات بإمدادات مضمونة ومتواصلة من المياه والكهرباء. وكان قد جرى تحديد سقف لإنشاء المناطق الصناعية الخاصة بحيث لا يتجاوز عددها (150) موقعاً حتى عام (2006). عندما نجح كمال ناث وزير التجارة، في إطار سعيه لزيادة الاستثمار الأجنبي وربما إسداء معروف كبير للنشاط الاقتصادي في الهند، نجح في إلغاء ذلك السقف على الرغم من معارضة وزير المالية بي.تشيدامبارام للقرار. وهنالك الآن (117) منطقة صناعية خاصة أخرى جرى منحها «موافقة مبدئية»، إضافة إلى 200 منطقة أخرى جاهزة للتنفيذ. وكان للازدهار السريع للمناطق الصناعية الخاصة في الهند تأثير بالغ جداً، لكي يلفت انتباه صندوق النقد الدولي، ويدفعه إلى توجيه تحذير بشأن «الحوافز الاقتصادية غير المعقولة» المقدمة لهذه المناطق. ويبدو أن عدداً كبيراً من الشركات التجارية القائمة تقوم بتحويل عملياتها إلى المناطق الصناعية الخاصة الجديدة، حيث تتخلص من أعباء ضرائب كبيرة إلى حد أن هذا الاتجاه بات يهدد العائدات الضريبية للحكومة. وتدعي وزارة المالية أن الخسائر في الإيرادات سوف تصل إلى (19) مليار دولار بحلول عام (2010)[18]. وليس بمقدور حكومة الهند أن تتحمل ببساطة خسارة هذه الأموال.

من غير المؤكد بعد كيف ستساعد المناطق الصناعية الخاصة المقصود بها أن تعود بالفائدة على الشركات المتعددة الجنسيات، في إيجاد ودعم سبل العيش لأصحاب المشروعات الصغيرة والحرفيين من أبناء دهاراڤي. وكان قد تقرر منذ نهاية العام الماضي البدء بعملية إعادة بناء حي دهاراڤي في شهر كانون الثاني من عام 2007. وإذا ما كان بإمكان الهند تحويل أكبر حي فقير في آسية إلى واحة مزدهرة متعددة الاستعمالات مع توفير أساليب راحة مدنية جيدة، وبنية تحتية جيدة، وتكرار عملية التحول الجذري تلك في الأحياء الفقيرة في كل أرجاء البلاد، فإن الهند الحضرية سوف تغدو محركاً هائلاً لإحداث تحول في الأمة بأكملها.

حالة طوارئ تعليمية

لا يمتلك عدد كاف مطلقاً من الشباب الهندي المهارات أو المستوى التعليمي المطلوب للوظائف الجديدة التي يجري إيجادها في البلاد. ومن بين الأسباب التي تدفع شركات

تكنولوجيا المعلومات الهندية إلى التوسع في الخارج عدم تمكنها من الاعتماد على العاملين الهنود من ذوي الكفايات العالية من أجل الوفاء بمطالب التزايد المستمر لنمو اقتصادي يحقق نسباً مرتفعة تتجاوز العشرة بالمئة، وهي تعد نسبة عالية في علم الاقتصاد. ويتلقى المرشحون المؤهلون للوظيفة عروضاً متعددة بانتظام، بينما يخفق نظراؤهم الأقل كفاية في الحصول على فرصة واحدة. وفي حين تقوم المعاهد التعليمية المتميزة للهند، بما فيها معاهد التكنولوجيا الهندية ذائعة الصيت والمعاهد الهندية للإدارة، بتقديم خريجين مؤهلين بشكل ممتاز، فإن هؤلاء يمثلون رقماً ضئيلاً جداً من أصل المجموع العام للخريجين في الهند. إضافة إلى ذلك فإن عدداً قليلاً من الهنود يكملون دراستهم الثانوية، وثمة عدد أقل ينجح في دخول الجامعة على الإطلاق. وتظل نسبة الأمية مرتفعة. فهناك عدد كبير جداً من الأولاد يذهبون للعمل وغالباً تحت ظروف لا تختلف عن ظروف العبودية في شيء. وهناك الكثيرون جداً ممن يذهبون فعلاً إلى المدرسة يتلقون تعليماً تكون نتيجته أنهم يظلون غير قادرين على القراءة أو حتى إجراء عملية حسابية بسيطة.

ولدى الهند حالة طوارئ تعليمية ملقاة على عاتقها، وهي تتحمل مسؤوليتها. ويندفع الأشخاص المهملون المؤثرون، لمواجهة تحدي تعليم أكبر عدد من السكان في العالم ممن هم في سن الدراسة. وكانت منظمة براثام Pratham، وهي منظمة غير حكومية تنشط في مجال تطوير التعليم الابتدائي (الأساسي) في الهند، قد نشرت أول دراسة استطلاعية سنوية لها عن تقرير التعليم (Annual Survey of Education Report ASER). وشكلت النتائج لائحة اتهام تدين النوعية المتدنية من التعليم المتاحة لمعظم الأطفال الهنود. وتستنتج منظمة «براثام» أنه من بين ما يقدر بنحو (140) مليون طفل في مرحلة التعليم الابتدائي في الهند، هناك 30 مليون طفل لا يستطيعون القراءة، و(40) مليوناً لا يستطيعون حتى تمييز الأحرف الأبجدية و(55) مليوناً لن يكملوا حتى أربع سنوات من الدراسة.[19]

وعلى الرغم من أن دستور الهند يضمن الحق لكل طفل في التعليم، فمن الواضح أن الحكومة لا يمكنها أن تتكيف مع الوضع. ومن الأمثلة على أكثر الجهود الواعدة في هذا الصدد قيام المشروعات المشتركة التي تربط الحكومة بمؤسسات خاصة وغيرها من المنظمات غير الحكومية والقطاع الخاص، بتولي هذه المهمة الصعبة وتحمل مسؤولية التحدي المتمثل في

تحسين نوعية وأفق التعليم الأساسي في الهند. وتسخّر مؤسسة عظيم بريمجي التعليمية التي أسسها المدير التنفيذي المسؤول لشركة ويبرو، عظيم بريمجي، جهودها لتحسين نوعية التعليم الابتدائي في الهند، لا سيما في المدارس الحكومية الريفية. وكنت قد زرت اثنتين من المدارس في حيدر أباد حيث تنشط المؤسسة وخرجت منهما بانطباع مفعم بالأمل والتفاؤل من أجل مستقبل واعد للبلاد.

أسست روهيني نايلكاني، زوجة رئيس مجلس إدارة شركة Infosys انفوسيس، ناندان نايلكاني، «مؤسسة آكشارا» Akshar المرتبطة بمنظمة «براثام». وركزت جهودها على «كل طفل في سن الدراسة والتعلم». كما أشرفت على إدارة برنامج لتوفير كتب مخصصة للأطفال ذات نوعية عالية ورخيصة الثمن تصدر باللغات الإقليمية. ومعظم الناس في الهند لا يتكلمون اللغة الإنكليزية، كما تقول روهيني. «إن إحدى الأمور التي لم نكن قادرين على الإفادة منها هي قاعدة المعرفة المتأصلة بداخلنا، لأننا غير قادرين على التحدث بعضنا مع بعض». وتمتلك مؤسستها ثمانمئة ألف كتاب مطبوع ومتاح لخمسين ألف طفل في ثلاثة آلاف وخمسمئة مكتبة من مكتبات المجتمعات المحلية.

وما هذا الجهد المبذول سوى اثنين من المئات من الجهود البطولية المبذولة لمواجهة أزمة التعليم في الهند. ولا بد أن أحد أكثر الأساليب إبداعاً في توسيع الفرص التعليمية، لا سيما في المناطق الريفية، هي تلك المتبعة عبر التعلم عن بعد عبر الاتصالات اللاسلكية للإنترنت. فليست ثمة إمكانية لإحضار الأعداد الهائلة من سكان الهند كلهم إلى مراكز التميز والخبرة الموجودة في المدن أو في دول العالم. والبديل الواضح هو أخذ هذه المراكز إلى الناس. «لقد اكتسب التعليم في عالم مترابط وبعد ثورة المعلومات معنىً جديداً لناحية المعلومات الفورية والمعلومات عند الطلب. وليس لزاماً عليَّ أن أذهب إلى جامعة هارفرد، فأنا أستطيع الدخول إليها وإلى العديد من هذه الجامعات عبر الإنترنت» هكذا يجادل راما دوراي رئيس شركة تي.سي.اس TCS. «فإذا لم يكن بالإمكان تحمل نفقات التعليم، ولم يكن متيسراً عند الحاجة؛ فسيتم حرمان طبقة من السكان من التعليم، وستعطى طبقة أخرى فرصة الحصول على تعليم دون المستوى المطلوب، وستحصل طبقة صغيرة جداً من النخبة على تعليم متميز». ولدى شركة TCS برنامج لزيادة الفرص التعليمية عبر أكشاك

الاتصالات اللاسلكية التي تقام في المناطق المحرومة من البلاد. ويتنبأ راما دوراي بأن التعليم سوف يمر بتحول نموذجي وجوهري مدفوع في جزء كبير منه بضرورة إيجاد السبل لتعليم أطفال الهند.

جزيرة من الامتيازات

تقع منطقة باندرا – كورلا الاقتصادية على الضفة المقابلة لنهر ميثي من جهة حي دهاراڤي. إنها جزيرة من الامتيازات المحمية تم إنشاؤها من أراضٍ مستصلحة ومقتطعة من المسار الكثير التعرجات لنهر ميثي. وهنا تقع المكاتب التجارية للمؤسسات العملاقة لمصرف سيتي بانك وآي.بي. ام. في مومباي. وللوصول إلى هذه الجزيرة، هناك جسر علوي ضخم يمتد بشكل قوس فوق الطريق الرئيس الشمالي الجنوبي، الذي يصل مركز العصب المالي ومنطقة القلعة التاريخية لجنوب بومباي بالمطار، والضواحي الممتدة شمالاً مثل حبات الخرز في خيط طويل باتجاه ساحل بحر العرب. ويرتفع من بعيد عند قمة الجسر المقوس، وعلى مستوى مرتفع عن الرائحة المثيرة للغثيان لحي ماهيم، المبنى البيضوي الشكل المكسو بالزجاج المتلألئ لشركة IL&FS. ثم ينحدر الطريق إلى الأسفل، ويخترق مسار التيار القاتم للنهر. وعلى الضفة الأخرى يقع الفردوس، مدينة زمردية تضم شوارع واسعة، ومساحات مزروعة بالنباتات الخضراء ومجمعات أبنية مكاتب ضخمة.

وتشكل منطقة باندرا – كورلا الاقتصادية مقراً للمباني الحديثة جداً التابعة للمدرسة الأمريكية لمدينة بومباي ومدرسة دهيروبهاي آمباني الدولية (DAIS). وتقع المدرستان بعضهما بجوار بعض، ولديهما ملعب رياضي مشترك.

وهنالك قليل من الشجيرات المشذبة بعناية، وبعض الأشجار تصطف ضمن محيط مدرسة آمباني الدولية، وما عدا ذلك فإن البيئة المجاورة جرداء خاوية. وهنالك داخل الأسوار العالية للمدرسة المزيد من النباتات والأشجار والأزهار. وتتوسط البناء باحة منيرة. أما غرف الصفوف فهي مزينة برسومات فنية للأطفال ومعروضات زاهية الألوان. ومع أن الأطفال يرتدون لباساً موحداً، الأمر الذي يفعله حتى تلاميذ المدارس الحكومية في الهند، فإنه ليس هناك من شيء يخضع لنظام صارم في المكان.

تأسست مدرسة دهيروبهاي آمباني الدولية في عام (2003). ومن بين أول سبعة وخمسين طالباً من خريجيها، حاز أربعة وسبعون منهم على القبول للانتساب إلى كليات متميزة في الولايات المتحدة وانكلترة بما فيها ستانفورد، كارنيغي ميللون، نورثويسترن، براون، كورنيل، وارتون، وديوك في الولايات المتحدة، وأوكسفورد، كامبريدج، وكلية لندن للاقتصاد في المملكة المتحدة.[20] وقد أردت أن أعرف كيف يكون بالإمكان إيجاد هذا التميز بهذه السرعة الفائقة، وأين يأتي موقع كلية بمثل هذا الإنجاز الفذ والامتياز الرائع، في التغييرات التي تحدث في الهند.

ونيتا آمباني زوجة موكيش آمباني، رئيس مجلس إدارة شركة ريلاينس للصناعات المحدودة (RIL) هي رئيسة مدرسة دهيروبهاي آمباني الدولية. وكانت قد وافقت بلطافة، على لقائي في المدرسة. وعندما وصلتُ كانت تعقد اجتماعاً تسوده أجواء إيجابية متفاعلة مع الطاقم الإداري. وقد كان بإمكاني معرفة أنها كانت مشغولة جداً في رعاية المدرسة وإعطاء تعليماتها وتوجيهاتها الخاصة. وبعد دقائق قلائل حضرت إليَّ واعتذرت لأنها جعلتني أنتظر، واصطحبتني إلى داخل مكتبها. كانت هناك في غرفة المكتب لوحات فنية حديثة من قماش الكانفا معلقة على الحائط، وبعض المخدات الحريرية المطرزة بشكل بديع ملقاة على الأريكة. كانت هناك صورة كبيرة بالألوان للشخص الذي سميت المدرسة باسمه، دهيروبهاي آمباني، الذي تمثل رؤيته وقيمه منارات تسترشد بها المدرسة. إلا أن نيتا آمباني تحمل معها أيضاً خبرتها الخاصة وطاقتها الحيوية إلى المؤسسة التعليمية. وتقول نيتا وهي مُدرسة سابقة أنه كانت تملك دافعاً قوياً وحماسة شديدة لإنشاء مدرسة (DAIS) نتيجة لشعور الخيبة والإحباط الذي أصابها إزاء صرامة النظام التعليمي التقليدي للهند. وقد أقنعتها دموع أولادها التي كانت تنهمر في صبيحة الأيام التي يذهبون فيها إلى المدرسة، بالحاجة إلى إيجاد منهج أفضل يركز اهتمامه على الأطفال. وتعد مدرسة (DAIS) مشروعها الخاص. وهي ترغب في إنشاء مدرسة هندية متميزة عالمياً، وأن تكرر نوعية التصنيف في منشآت تعليمية أخرى، غير أنها ترغب أيضاً في تطبيق نموذجها المتميز على المدارس الحكومية في الهند.

وتستخلص نيتا آمباني الكثير جداً من المعلومات والخبرة من دروس تربيتها الخاصة. وقد أبلغتني أنها نشأت في أسرة مشتركة كبيرة في سانتا كروز، وهي منطقة تقع في ضواحي

بومباي غير بعيدة عن غوهو. «لقد ترعرعت في جو كنتِ تتعلمين فيه أن تعتني بالآخرين. كنا أحد عشر شخصاً في المنزل، بحمام واحد. وأنا أقول لأولادي عندما يطلبون حماماً خاصاً بهم، هذا الكلام:اسمعوا، كان علينا أن نقف في الدور لدخول الحمام. كنت تتعلمين التحلي بالصبر، وكنت تتعلمين المشاركة مع الآخرين. كان عمي يعيش معنا وكان ضريراً. كان علينا أن نقرأ له، وأن نأخذه للتنزّه خارج المنزل. وكان جدي يشدد دوماً على التعاطف. وقد تعلمنا أن نكون عطوفين، وأنا أقول لموكيش: إنها كانت طفولة من قصص الخيال».

تعد مدرسة (DAIS) مدرسة هندية بصورة متميزة. وقد قالت لي نيتا آمباني: «إن العولمة لا تعني التطبيع بأفكار وأساليب الحياة الغربية. وتعد ممارسة رياضة اليوغا نشاطاً إلزامياً في المدرسة. ويدرس الأطفال الرقص الهندي والموسيقا الهندية». وهي واثقة أيضاً بأن التلاميذ يفهمون تاريخ الهند المستقلة. «لقد قمنا بإعداد برنامج كامل عمن ناضل من أجل الحرية. ووجدنا الكثيرين من المناضلين ممن كانوا ما زالوا على قيد الحياة، ودعوناهم إلى المدرسة، وكان ذلك جزءاً من برنامج اسمه «نحن الشعب». كما قمنا بدراسة كفاح الهند من أجل الحرية منذ عام (1857) حتى إعلان الدستور».

كان أكثر ما استرعى انتباهي بشأن مدرسة (DAIS) روح التعاطف والاهتمام بالآخرين التي عملت آمباني على أن تجعلها متكاملة مع التجربة التعليمية للأطفال. ففي مدرسة (DAIS) يتعلم التلاميذ الاهتمام بالبيئة عن طريق إعادة تدوير المياه والحفاظ عليها. وهم يتعلمون الاهتمام بمن هم أقل حظاً منهم من إخوانهم المواطنين عن طريق العمل في دهاراڤي. وقد أسرَّت لي نيتا آمباني، بأنه «عقب زيارتهم الأولى إلى الحي الفقير، لم يعودوا يرغبون في العودة إليه، لكنه الآن مجرد جزء من حياتهم المدرسية العادية. وهذا مهم جداً بالنسبة لي، وأكدت «إن أطفالنا يأتون لاكتساب روح التعاطف والاهتمام كجزء من شخصيتهم. وعليهم ألا يشعروا أبداً وكأنهم يسدون معروفاً إلى أحد ما. فهذا يجب أن يكون جزءاً من كيانهم».

وبالإضافة إلى جعل تلاميذ مدرسة (DAIS) يدخلون إلى حي الصفيح المعدم لتقديم المساعدة، فقد توصلت نيتا آمباني إلى اتفاق مع منظمة «اكانكشا» Akanksha وهي منظمة غير حكومية مسخّرة لمساعدة أطفال الأحياء الفقيرة في بومباي. وتفتح مدرسة (DAIS)

أبوابها للتلاميذ من منظمة أكانكشا بعد ساعات الدراسة النظامية، فتمنح الأطفال الذين يعيشون في ظل بعض أسوأ الأوضاع في العالم الفرصة، لكي يتعلموا في واحدة من أفضل أوساط التعلم في العالم.

وتدرك نيتا آمباني بعمق أنه لا يكفي بالنسبة للهند أن يكون لديها بضعة مراكز فقط من التميز مثل مدرسة (DAIS) إذا ما ظلت هذه معزولة عن باقي السكان. وهي تقول: إنها جعلت من عملية وضع تصور لكيفية إيصال التميز بأقل كلفة ممكنة أمراً إلزامياً ضمن المدرسة. وأوضحت أنه «ليس هناك عدد كبير من أولياء الأمور ممن يريدون أن يحصلوا على دعم العون المادي لو كان في وسعهم، ولذا فقد اخترنا وبدلاً من منشأة تعليمية تتقاضى رسوماً أعلى وتقدم منحاً دراسية، منشأة تتقاضى رسوماً أقل حتى تشعر جميع الأسر بأنها متساوية. ونحن لدينا خليط كبير من المجتمع هنا. وتشكل غرفة الصف تجربة عملية لتحديد المستويات، وهي تسهم في التجربة التعليمية. وفي حين يؤدي خفض مجمل الدراسة إلى جعل كلفة الذهاب إلى مدرسة (DAIS) أقل من المبالغ المرتفعة التي يدفعها أبناء الطبقة الثرية جداً من التلاميذ من دون مساعدة مالية، فإن الخليط يمكن أن يشمل فقط أولاداً من خلفيات تعيش في بحبوحة مادية نسبياً. ولكونها قد لجأت إلى تعليم أطفال فقراء، فإن نيتا آمباني تعرف تماماً أن أطفال الأحياء الفقيرة لا يستطيعون الذهاب إلى مدرسة (DAIS) كطلاب نظاميين.

إلا أن نيتا آمباني أبلغتني أن هدفها هو أن تكون مدرسة (DAIS) رائدة التغيير بالنسبة للمدارس الحكومية في بومباي. وقالت: إن هيئة بومباي المحلية تعلم ثمانمئة ألف إلى مليون طفل، «وهي تملك بنية تحتية قائمة. وإذا ما كان بمقدورنا أن نأخذ مدرسة واحدة ونجري تحولاً فيها، فإننا نستطيع إيجاد النموذج؛ ثم يجب علينا الإكثار منه، والإكثار منه بسرعة فلا وقت هناك لإضاعته. فالهند تواجه حالة طوارئ تعليمية، لا سيما في التعليم الابتدائي».

لقد ارتبط تعاطفها بوضوح مع الأسلوب الشخصي في العمل الذي تتبعه عائلة آمباني مع شركة ريلاينس: ويتميز هذا الأسلوب بطابع خاص يركز على جملة توجيهات كالآتي: اجعله الأفضل، اجعله كبيراً، كرره على نطاق واسع، خفض التكلفة، واعمل على زيادة

الفرص. وقالت لي: «هذا هو النموذج الذي أريد أن أصنعه: مقاييس ممتازة يمكن تحمل كلفتها. إنه عمل صعب من أعمال التوازن ولكن لا بد لنا من أن نقوم به». وبينما كنا نودع بعضنا لم تتمالك نفسها من القول بانفعال: «أتعلمين، إنني أحب عملي كثيراً جداً. ولا أريد أن أُضيع يوماً واحداً. إنني أَشعر بإحساس كبير من المسؤولية، فكيف نحقق هذا الحلم بالنسبة للهند؟ كيف نجعل كل طفل قادراً على القراءة والكتابة؟ إن الأمر لا يتوقف إطلاقاً تقريباً عن توليد شعور بالقلق في داخلك. إنه يدفعكِ إلى الأمام والأفكار لا تبرح ذهنك أبداً مهما كنت تفعلين».

مستوى عالٍ من التعليم
لأطفال الهند الفقراء

تسخّرمؤسسة عظيم بريمجي أعمالها بالكامل لتحسين التعليم الابتدائي في الهند من أجل الأطفال الأشد فقراً في البلاد. وتعمل المؤسسة مع المدارس الحكومية الموجودة، وبشكل أساسي في القرى الريفية الفقيرة. إن العبارة التي تختصر رؤيتها هذه، مقنعة تماماً: «الإسهام بشكل كبير في تعليم عالمي عالي المستوى، يسهل قيام مجتمع إنساني منصف وعادل». وكنت قد سافرت إلى بنغالور للاجتماع مع ديليب رانجكار، المدير التنفيذي للمؤسسة لأعرف المزيد عنها، وزرت لاحقاً اثنتين من المدارس في حيدر أباد، حيث تعمل مؤسسة عظيم بريمجي، وذلك لكي أرى بنفسي كيف تعبّر المؤسسة عن أفكارها، وتنفذ خططها على أرض الواقع.

تقع مكاتب المؤسسة في بناء وضعت التصميم المعماري له السيدة بريمجي. ويتموضع المبنى في غابة صغيرة من أشجار الأوكاليبتوس خلف مقر مكاتب شركة «ويبرو»، وهو عبارة عن منشأة مشيدة من الآجر الأحمر البهيج، ومصمم بشكل يسمح بدخول أكبر كمية من الضوء، وتقليص الفارق ما بين القسم الداخلي والقسم الخارجي. وفي هذا الوسط المتناغم والمسالم، يرأس ديليب رانجيكار جهود المؤسسة لنقل التغيير الثوري على نطاق واسع، إلى أفقر المدارس في الهند. ورانجيكار رجل لطيف في منتصف العمر له لحية مشذبة على نحو متقارب مع خصل رمادية، وكان يرتدي قماشاً مصنوعاً من القطن المحبوك يدوياً عندما التقينا.

«نحن نركز على إحداث تغيير على نطاق واسع وعلى إحداث إصلاح منهجي. وينصب اهتمامنا على جودة التعليم الابتدائي. فهناك في الهند مئتا مليون طفل تتراوح أعمارهم ما بين السادسة والرابعة عشرة يدرسون في مدارس ابتدائية حتى الصف الثامن. وهنالك مليون مدرسة وخمسة ملايين مدرس. ويعيش سبعون بالمئة من هؤلاء الأولاد في مناطق ريفية. وفي الوقت الحاضر، يكمل ثلث أطفال الهند فقط الصف العاشر. وثلث الأولاد في الصف الخامس لا يستطيعون القراءة والكتابة. ولكنَّ خمسةً وسبعين بالمئة من شعبنا لا يملكون فرصة استعمال مياه الحنفية، وخمسين بالمئة ليست لديهم كهرباء. وهذا هو التحدي الذي نواجهه. ومن أجل القيام بذلك وفق المقياس المطلوب، فإننا نعمل مع مدارس حكومية وإدارات الدولة التعليمية. إن مهمتنا الأساسية هي إعادة تعريف كلمة «ماذا» و«كيف» في التعليم، مع التركيز على الطفل. إننا نركز على المدارس صديقة الطفولة، وعلى ضمانات التعليم، وعلى المبادرات المتخذة في مجال التكنولوجيا، وعلى إصلاح الإدارة التعليمية من أجل تغيير النظام البيئي».

وأردت أن أعرف «ماذا كانت تعني المدرسة صديقة للطفولة؟ فأوضحت قائلة: «إننا نعمل على هذا المشروع بالشراكة مع منظمة اليونيسيف UNICEF وحكومة ولاية كارناتاكا. ويعد هذا تداخلاً شاملاً. وفي المدرسة صديقة الطفولة لا بد من أن يكون الأطفال متحمسين لها ويرغبون بالذهاب إليها. ولا بد من استيعاب جميع الأطفال فيها بغض النظر عن النوع الاجتماعي ذكراً كان أم أُنثى، أو الوضع الاجتماعي – الاقتصادي. ويجب على المدرسة أن تساعد على تنظيم التعليم التشاركي وأن تكون نظيفة وتتبع القواعد الصحية. ولابد لجميع الأولاد من أن يكملوا الصف الخامس على الأقل. وبموجب برنامج «ضمان التعلم» الذي وضعناه فإن تعريف مدرسة ضمان التعلم هو المدرسة التي يتم فيها تسجيل مئة بالمئة من الأولاد، ويواظب على حضور الدروس فيها بانتظام تسعون بالمئة منهم، ويبرهن ستون بالمئة منهم على الأقل على محصلات تعلم متوقعة».

وقد بادر عظيم بريمجي مرتين إلى تحويل أسهم قيمتها (3.5) مليارات روپية أو ما يقارب (80) مليون دولار في إطار تبرعه بتقديم منح مالية للمؤسسة. وهناك (250) من المختصين والخبراء و(1,100) من المتطوعين يعملون لصالح المؤسسة في ست عشرة ولاية مختلفة في

أنحاء الهند. وقال رانجيكار: «كل شيء يتم التخطيط له بالشراكة مع الحكومة، ونحن لا نبحث عن أي تقدير وعرفان أو عن التأسيس لعلامة تجارية. إن متعتنا تتحقق عندما يحدث التغيير، وليس بجعل اسمنا ظاهراً هناك. ويجب على الحكومة في النهاية أن ترسي نظاماً مؤسساتياً للمبادرات إذا ما كان لها أن تنجح. ونحن نستطيع أن نوجد في كل مدارس الهند. إن مهمتنا هي إثبات صحة المفهوم الذي نستند إليه، وإيجاد الطرق والوسائل لتغيير طريقة التفكير من أجل اعتماد نظام بيئي يركز على التغيير. وعلى الحكومة أن تتولى إدارة الأمور انطلاقاً من هناك».

كنت قد سمعت من أشخاص عديدين: أن الغياب المتكرر للمدرسين كان أحد أكبر المشكلات التي تواجه عملية تحسين التعليم الابتدائي. وبوصفهم موظفين لدى الحكومة، فإنه لا يمكن طرد المدرسين بسهولة. كما أن الفساد يطرح مشكلة كبيرة بوجود أناس يدفعون رشوة للحصول على وظيفة مدرس، وجمع الراتب، والتعاقد في الخفاء مع شاب مراهق في القرية ليحضر إلى المدرسة نيابة عنهم بين الحين والآخر. وسألت رانجيكار كيف جعلت المؤسسة المدرسين يلتزمون بالقيام بعملهم، لا سيما في المناطق الريفية. فأجاب: «ذاك هو ما يركز عليه برنامج ضمانات التعليم. وهو أولاً برنامج طوعي مبدئياً. ونحن نقوم بإبلاغ المدارس أننا سوف نجري تقويماً لكل الأولاد في المدارس. وسوف نختبر كيفية سير دراسة تلاميذكم. وسوف نستخدم ذلك لتقديم صورة واضحة عما يجري، وسنعلن النتائج على الأهالي؛ وعلى المجتمع المحلي أن يتولى إدارة الأمور انطلاقاً من هناك. فالأهالي يريدون الحصول على تعليم جيد لأولادهم».

لقد ذكرت كيف كنت متأثرة بالإحساس بالمسؤولية المشتركة السائد بين رؤساء الشركات التجارية الذين التقيتهم في الهند. وترك ذلك في نفسي انطباعاً جيداً. وقد كان رانجيكار متشككاً بقوله: «إن رد فعل الشركات التجارية ليس مشجعاً جداً. وبمقدورهم أن يلعبوا دوراً مهماً. بمقدورهم أن يمارسوا الضغط على النظام عن طريق تغيير سياسة التوظيف التي يتبعونها. وحقيقة الأمر هي أن الهند سوف تواجه أثناء خمس سنوات نقصاً في الكوادر المتخصصة في تكنولوجيا المعلومات بحدود 350,000 فني وخبير. ومع ذلك فإن الشركات لا ترغب في الاستثمار في تعهدات طويلة الأمد وغير مباشرة. وعليها أن تقر بأن ثمة عنصراً

اجتماعياً بالنسبة لنشاطهم التجاري إلا أن ما يتحدث عنه معظمها هو نسب قيمة الأسعار إلى قيمة الإيرادات. ويفتقر رؤساء الشركات التجارية إلى المصداقية، لأن هناك الكثير من النفاق. فقط أعطِ القليل من شيء ما لإسكات الناس إذا ماكنت تقوم بالتسبب في التلوث. ثم استمر في عملية الفساد. أما نحن فإننا نتبنى وجهة نظر مختلفة تماماً. فكلمة عمل الخير والأعمال الإنسانية هي فكرة بغيضة بالنسبة لنا. ونحن بحاجة إلى تغيير منهجي وحلول بعيدة الأمد. نحن بحاجة إلى مقاربة مهنية للحلول المتطورة بالنسبة للحياة العامة».

سألته ما إذا كانت شركة «ويبرو» تقوم بعمل أي شيء خارج المؤسسة بصفتها شركة تجارية، من أجل إظهار المسؤولية المشتركة، فأجاب: «بكل تأكيد». وتقوم شركة ويبرو، على سبيل المثال، بمعالجة هذا الموضوع على موقع e-waste، الإلكتروني والخاص بالنفايات الناجمة عن صناعة وسائل تكنولوجيا المعلومات.

كنت في طريقي إلى مدينة حيدر آباد في اليوم الآتي. وكانت المؤسسة تعمل في المدارس الموجودة عبر ولاية اندرا براديش، بما فيها مدارس المناطق الفقيرة من حيدر آباد. وهيأ لي ڤيجاي غوبتا اتصالاً مع جاغاديش بابو، الذي يعمل لصالح المؤسسة هناك. ورتب لي بابو أمر زيارة مدرستين، وجعل أحد أعضاء الدائرة التعليمية في اندرا براديش يرافقنا في الزيارة.

وحالما هبطت بي الطائرة أثار إعجابي التباين الجذري بين حيدر آباد والمدن الهندية الأخرى التي كنت أعرفها. فهناك شوارع عريضة نظيفة تصطف على جانبيها مجمعات تجارية ومجمعات سكنية، تضم شققاً فخمة، وبحيرة مركزية، تنتظم في محيطها حدائق عامة حديثة. وكل شيء مضاء بأضواء النيون ليلاً – وتبدو حيدر آباد، التي باتت تنافس بنغالور بسرعة بوصفها مدينة تكنولوجيا المعلومات الأولى، تبدو أكثر شبهاً بمدينة بانكوك من أية مدينة هندية أخرى. وفي حين كنا نشق طريقنا إلى المدرسة الأولى التي كنا سنزورها في صباح اليوم الآتي على أي حال، وعبرنا عبر إحدى بوابات المدينة إلى القسم الأقدم من البلدة، كان الأمر أشبه بالمرور عبر نوع ما من التشويه في حيز التطور: فقد وجدت نفسي فجأة وقد عدت إلى الهند بلد الفقراء بمساكنها المتداعية المتصدعة، وشوارعها المغبرة، وعنزاتها الشاردة وأكوامها من القمامة.

توجد في ولاية اندرا براديش خمسة وخمسون ألف مدرسة ابتدائية، وعشرة آلاف مدرسة إعدادية واثنتا عشرة مدرسة ثانوية. وتعمل مؤسسة عظيم بريمجي مع خمسمئة مدرسة ريفية في الولاية. وإذا كان باستطاعة المدرسة إثبات أنها تمتلك مصدراً قانونياً للكهرباء (تتفشى في الهند قرصنة التيار الكهربائي) وغرفة يمكن إبقاؤها نظيفة، عندها تكون المدرسة مؤهلة لاستجرار أموال من الحكومة الهندية وحكومة الولاية من أجل الحصول على أجهزة الكمبيوتر؛ وتؤمن المؤسسة بدورها تقديم البرمجيات التعليمية.

قال لي بابو: إن أول مدرسة كنا سنزورها تقع في حي فقير للغاية. وكان الدخل الشهري للأسر التي تعيش فيه يبلغ ألفي روبية كل شهر، أي نحو (45) دولاراً. كانت المدرسة مشيّدة داخل منطقة مسورة بالجدران، مع ملعب في الوسط. كانت هناك مراحيض تشطف بمياه جارية وحنفية لشرب المياه. وكانت هناك عيادة طبية، حيث قيل لي: إن طبيباً يأتي بانتظام ويتفقد صحة التلاميذ. «أجريت لطالبين جراحة في القلب بعدما تم فحصهما من قبل الطبيب، وخضع آخر لجراحة في العين، كما قال لي أحد المدرسين، وكل التلاميذ يتلقون لقاحاتهم عن طريق العيادة. ويتم تقديم وجبة مغذية في وقت الظهيرة. وكانت هناك قدور كبيرة من الأرز والعدس بانتظار الأولاد في صبيحة زيارتي. وكنت معجبة بالمدرسين، وجميعهم من النساء، اللواتي وإن كن يرتدين ملابس ليست بأفضل من ملابس تلاميذهن، فقد كن يمتلكن موارد متواضعة بدورهن، ويسخِّرن كامل وقتهن لهم. كان الوقت يقترب من نهاية الفصل الدراسي، وكان طلاب الصف العاشر على وشك التخرج وكانت بعض الفتيات تتشبثن بمعلماتهن حزينات لفراق أولئك النسوة اللواتي كان لهن شأن كبير جداً في حياتهن.

صعدنا إلى الطابق العلوي حيث كانت هناك صنادل وأحذية طرية من المطاط مكومة خارج باب الغرفة الأخيرة في نهاية الممر المفتوح. وكان هذا هو المدخل إلى مختبر الحاسوب الذي ضم عشرة أجهزة كمبيوتر ومكيف هواء. وجلس ثلاثة أولاد عند كل جهاز. كان هناك أولاد من جميع الأعمار، ولكن معظمهم أولاد في الصف الثالث. كانوا يطبقون دروساً مختلفة مستخدمين برمجيات مطورة قدمتها مؤسسة عظيم بريمجي. ودُهشت لرؤية لوحة مصنوعة باليد تشكر «المؤسسة الأمريكية الهندية». وعلمت أن مُدرس مادة الحاسوب

كان يحصل على معونة مالية بموجب منحة من هذه المؤسسة. أما أجهزة الكمبيوتر ذاتها فقد جرى التبرع بها من قبل شركة هيوليت باكارد (HP). وبفضل الشراكة ما بين الهيئات والمؤسسات وحكومة الولاية، والحكومة الوطنية، كان لدى الأولاد في هذه المدرسة مختبرلأجهزة الكمبيوتر. ويشكل هذا النوع من الشراكة الثلاثية الشُّعب ما بين الحكومة، القطاع الخاص والأعمال الإنسانية المفتاح لحل مشكلات الهند.

وقال بابو: «إن خمسة بالمئة من أهالي هؤلاء الأولاد أميون. وهم لا يستطيعون زيارة المدرسة أبداً، لأنهم عمال بالمياومة، وإذا ما أضاعوا يوماً واحداً فسوف يفقدون عملهم. ولم يسبق لهؤلاء الأولاد أن شاهدوا جهاز كمبيوتر «حاسوب» قبل أن يدخلوا هذه الغرفة، وهم يحبون أن يلمسوا الأجهزة أو حتى مجرد الوقوف بالقرب منها، فهم مفتونون بها».

وكان هناك وفي الغرفة المجاورة مئة ولد يجلسون متربعين على الأرض، يتابعون درس الحاسوب ذاته، ينجزه ولد في مقدمة الصف على لوحة مفاتيح موصولة بجهاز تلفاز كبير. وأوضح بابو «ليس هناك أجهزة حاسوب كافية لكل الأولاد، لكي يأخذوا دورهم في وقت واحد. فهناك (121) ولداً في غرفة الصف الثالث، و(141) في غرفة الصف الخامس، ولذا فهم يتابعون مشاهدة الدرس اليوم. وسوف يأتي دورهم عند جهاز الحاسوب في يوم آخر». وسألته إن كان هذا عدد الأولاد في كل غرفة صف ولكل معلم، فرد بالإيجاب.

وقالت لي مندوبة الدائرة التعليمية في ولاية اندرا براديش: «نحن لدينا في مدينة حيدر آباد عدد كبير من المسلمين. وهم فقراء جداً. وتحاول الحكومة تشجيع التعليم وهو مجاني بالنسبة للفتيات، كما أنهن يتنقلن مجاناً في حافلات المدينة. وعندما يكملن الصف العاشر، تودع الحكومة نقوداً في حساب مصرفي لصالحهن. وكانت هناك عادة رائجة بإرسال العديد من الفتيات ممن هن في سن التاسعة أو العاشرة إلى منطقة الخليج. وأهلهن فقراء للغاية أما في الوقت الحاضر فإن أعداداً متزايدة منهن يتوجهن للدراسة في المدرسة».

كان الطلاب متلهفين لكي يشرحوا لي ما كان باستطاعتهم القيام به وشعروا بالفخر عندما أكد جهاز الحاسوب الإجابة الصحيحة. وقال لي المدرسون: إن عندهم برنامجاً لما قبل وبعد الدوام الدراسي من أجل الأولاد الذين انقطعوا عن الدراسة أو تأخر تعليمهم اسمه

«جسر نحو المستقبل». وبإمكانهم أن يأتوا إلى المدرسة في أثناء ساعات توقف الدوام، وأن يعوضوا ما فاتهم من دروس، بهدف العودة للانضمام إلى صفهم. وتباهى المدرسون بتقديم عروض مصورة على شاشة الحاسوب بوساطة برنامج «باور بوينت» من ابتكار الأولاد الأكبر سناً. وقال لي بابو: إن اندرا براديش كانت إحدى أولى الولايات التي أدخلت أجهزة الكمبيوتر في الهند. كذلك هناك برنامج ضمان صحي عالمي للأولاد. وشهدت الولاية تحسناً بنسبة (12) بالمئة في تسجيل الطلاب في المدارس وزيادة بنسبة (50) إلى (60) بالمئة في استبقائهم فيها. ويجب على كل المدرسين أن يجتازوا امتحانات خاصة لمعرفة مدى كفايتهم فضلاً عن حضور دورات سنوية مدتها واحد وعشرون يوماً، وذلك لتحديث معلوماتهم.

وقال الرجل الذي يعمل في الدائرة التعليمية: «إن العولمة تجعل الناس يرغبون في الحصول على تعليم أكثر. وهناك تأثير كبير لصناعة البرمجيات هذه. الجميع يريد تعليماً أفضل. وقال أيضاً: إن حكومة ولاية اندرا براديش تقوم بإنشاء مراكز ريفية لخدمات البريد الإلكتروني، حيث يستطيع القرويون الوصول إلى سجلات الكترونية لكل الوثائق والمستندات المدنية بما فيها شهادات الميلاد، وشهادات الزواج، عائدات الضرائب، سندات ملكية الأراضي، شهادات النظام الطبقي (مهمة في بلد حيث تُخصص نسبة من الوظائف الحكومية لطبقات اجتماعية معينة)، وفواتير الكهرباء. ويرى الناس تكنولوجيا المعلومات وهي تعمل في حياتهم اليومية، ولا بد لهذا من أن ينبه الهنود الأميين من أبناء الأرياف إلى ما تبشر به التكنولوجيا من خير وأن يحثهم أكثر بالمقابل ليطالبوا بالحصول على الفرص التعليمية لأولادهم – وهذا هو بالضبط ما تريده مؤسسة عظيم بريمجي أن يحدث.

من الصعوبة بمكان الاستهانة بتأثير صناعة تكنولوجيا المعلومات في الهند على البلاد. فأولاً هناك، وكما أشارت ناريانا مورثي من شركة انفوسيس، الفكرة الثورية لنظام ذوي الكفاية، ومفادها: أن أي شخص تعلم وعمل بجد يمكنه تحقيق النجاح. ثم هناك الدافع القوي لرد العطاء للبلاد، ولزيادة الفرص التعليمية حتى يتمكن عدد أكبر من مواطني الهند في المستقبل من المشاركة في توسيع الأنشطة الاقتصادية فيها. أخيراً هنالك عملية تحويل ما تسميه مؤسسة عظيم بريمجي النظام البيئي، حيث يشعر الأهالي، الأولاد، المربون، والإداريون وأخيراً السياسيون ورؤساء الشركات التجارية يشعرون جميعهم بإحساس قوي

من النشاط والإثارة، وحيث يتم تحويل المواقف وطرق التفكير والسلوك. وحالما يدرك ما يكفي من الناس المعنيين أن الوضع الراهن ليس مقبولاً، وأنهم يملكون القدرة على تغييره، فإنهم سوف يفرضون عملية تحسينه وإصلاحه.

ولدى حكومة الهند برنامج يدعى «سارڤا شيكشا ابيهيان» Sarva Shiksha Abhiyan هدفه ضمان أن جميع الأولاد من سن السادسة وحتى الرابعة عشرة يذهبون إلى المدرسة، وأن كل أطفال الهند يتلقون ثماني سنوات على الأقل من التعليم النظامي. ومع ذلك، ففي عام (2005). أنهى الصف الثامن أقل من نصف الأولاد الهنود الذين تم قبولهم في الصف الأول، وبلغت نسبة التسرب من المدرسة (52.79) بالمئة. وهناك أسباب متعددة تقف وراء ذلك، فتسعة عشر بالمئة من المدارس الابتدائية تضم في هيئتها التعليمية مدرساً واحداً. والمرافق الصحية رديئة والعديد منها ينقصها المراحيض أو المياه الجارية. وأبلغني شيباني ساتشديف، رئيس المؤسسة الاجتماعية الخيرية «يونايتد واي انديا» United Way India، أن ما يزيد على (80) بالمئة من المدارس الرسمية في ولاية مهاراشترا، إحدى أغنى ولايات الهند، تفتقر إلى مياه الشرب. ويحدث هذا في مناخ حار. وتمتلك المدارس الرسمية التي رأيتها مرافق بدائية للغاية، وغالباً ما يجلس الأولاد على الأرض، لأنهم ليس عندهم مناضد دراسية أو كراسي. وهم يشتغلون على ألواح الأردواز، باعتبار أن استخدام الورق وأقلام الرصاص والحبر مكلف جداً، كما أنهم يتشاركون معاً في قراءة كتب مهترئة جداً. وإذا ما كانت المدرسة موجودة داخل مبنى إسمنتي، كما هو حال العديد منها، فإنها موحشة على الدوام فليست هناك من نباتات رائعة مزروعة، ولا ملاعب رياضية أو معدات لملاعب الأطفال، ولا أشغال فنية معلقة في غرف الصفوف، وبالتأكيد لا توجد مختبرات علمية، ولا ستديوهات للفنون أو قاعات للموسيقى. وتعاني مدارس الهند الابتدائية الرسمية معدلاتٍ عاليةً لتغيب المعلمين، ويجد العديد من الأولاد أن تقدمهم التربوي يتعرض للتوقف بشكل منتظم. وفي عام (2005). كان هناك (42) مليون طفل في الهند تتراوح أعمارهم ما بين السادسة والرابعة عشرة لا يذهبون إلى المدرسة. كذلك فإن استمرار عمل الأطفال واستمرار الهجرة الداخلية للملايين من الهنود، الذين يأخذون معهم أولادهم، وهم ينتقلون من عمل إلى آخر، والتمييز واسع النطاق ضد الفتيات، وهي قضايا أتناولها في الفصل (6) كانت أيضاً عوامل تحرم الكثيرين من أطفال الهند من حقهم في التعليم الابتدائي الأساسي[21].

إن صورة بنت في السادسة عشرة من العمر على وشك التخرج في الصف العاشر، وهو إنجاز طبيعي في النظام التعليمي للهند، التي ربما يكون والداها أميين، وكانت أمها بالتأكيد في سنها عندما أصبحت أماً، وهي ممسكة بذراع معلمتها وتميل على كتفها في حين تُحدق كلتاهما في عرض لبرنامج «باور بوينت» على شاشة جهاز الكمبيوتر، كانت قد تعلمت أن تعمل على ابتكاره في مدرسة مكسوة بالغبار في حي فقير قذر، بسبب إيمان وتفاني المئات من الأفراد، الذين يمتلكون الدافع، والذين يؤمنون بإمكانيتها وطاقتها الكامنة، هذه الصورة تشكل بالنسبة لي جوهر ما هو الأكثر مدعاة للأمل بشأن مستقبل الهند.

الألعاب الرياضية في العاصمة: ترتيب نيودلهي

كانت هناك في العام الماضي على طول كل منصف في الطرق العامة في مدينة دلهي لافتات تعلن «Challo Dilli، من مدينة معزولة إلى مدينة عالمية!» وتعني عبارة Challo Dilli، «لننطلق، يا دلهي». وستعقد دورة الألعاب الرياضية لدول حلف الكومنولث في دلهي في عام 2010. وتملك عاصمة الهند كل عزم ممكن لتكون جاهزة لإثارة إعجاب الزوار من كل دول العالم. وقياساً على نمط النموذج المطلوب من سائقي سيارات الأجرة في العاصمة الصينية بيجين تحضيراً للألعاب الأولمبية التي ستجري فيها، سيكون مطلوباً من سائقي الأجرة في مدينة دلهي أن يجتازوا امتحاناً في اللغة الإنكليزية لدى إعادة تجديد رخص قيادة سيارات الأجرة التي يعملون عليها[22]. وحتى لا تتفوق عليها الصين، عبرت الوزيرة الأولى لولاية دلهي عن ثقتها في كلمة ألقتها في احتفال سبق عيد الجمهورية في العام الماضي، بأن الهند ستستضيف كلاً من الألعاب الرياضية الآسيوية في عام (2014). والألعاب الرياضية الأولمبية في عام (2016). وأعلنت أن هذه المناسبات الدولية تمثل تحدياً كبيراً باعتبار أن على دلهي أن تقوم بتحضيرات واسعة النطاق للألعاب الرياضية. ولكن دلهي سوف تصبح قطعاً مدينة من نوعية عالمية في المدة التي تسبق انعقاد دورة الألعاب الرياضية فيها.[23]

إن نيودلهي هي الآن أكثر منطقة عمرانية خضاراً واتساعاً في الهند. ولا تشاهد فيها أحياء فقيرة، مع أنه توجد في بعض الأزقة الفرعية مجموعات صغيرة غير مرئية من الأكواخ، إلا أن الكثير من الأحياء الفقيرة تحيط بالمدينة. وحينما تكون هناك أرض خلاء

يقوم البعض من الخمسمئة ألف شخص، الذين يتدفقون على المدينة كل عام بحثاً عن فرصة مواتية، أو مجرد البقاء على قيد الحياة، يقومون بإنشاء أي مأوى يستطيعون إنشاءه.[24] وهذه الأكواخ الصغيرة المسماة «جويغيز» Jhwggis، كانت على مر عقود من الزمن مصدر المتاعب للطبقات الأحسن حالاً في الهند، وللمسؤولين الحكوميين الذين عقدوا العزم على تحديث البلاد. وكانت السيدة انديرا غاندي قد تعرضت لمواقف صعبة عندما استخدمت الصلاحيات، التي منحتها لنفسها عن طريق إعلان حالة طوارئ في عام (1975). من أجل هدم الأحياء الفقيرة على عجل وتسويتها بالأرض. وأدى هذا الأمر وغيره من الإساءات الاستبدادية إلى طردها من منصبها بعد ذلك بتسعة عشر شهراً. وقد تضمنت كل واحدة من الخطط الخمسية التي وضعتها الحكومة الهندية بنوداً خاصة بتخطيط المدن والإسكان منخفض التكلفة، إلا أن الإنجازات كانت قليلة في الواقع والمشكلة تتفاقم كل يوم. وفي السنوات التي أعقبت حالة الطوارئ التي أعلنتها انديرا غاندي، جرى إخلاء الأحياء الفقيرة في مدن الهند الرئيسة مرة تلو الأخرى، ولكن لتظهر ثانية إما في المكان ذاته أو في مكان ما مجاور. وفي عام 2004 تم إخلاء الآلاف من الأكواخ التي كانت قائمة على طول نهر يامونا في مدينة دلهي. وتبعه في عام (2005). تسعون ألف كوخ في بومباي لإفساح المجال أمام مشروعات التطور العمراني، الأمر الذي أدى إلى تشريد 350,000 ألف شخص.[25] وفي العام الماضي وبَّخت الأمم المتحدة الهند على الأسلوب التي كانت تتبعه في إخلاء الأحياء الفقيرة. ولم تستجب الهند.

وضع ادوين لوتاينز مخطط مدينة نيودلهي (دلهي الجديدة) بهدف إظهار عظمة حقبة الحكم البريطاني لبلاد الهند، واكتمل بناؤها في عام (1929). حيث قام البريطانيون بعد ذلك بنقل عاصمتهم الإدارية هناك من «دلهي القديمة» كما تسمى حالياً، إلى الشمال. وتقبع في هذه المنطقة تقريباً داخل حدود سلسلة من الأسوار القديمة، التي بناها المغول، وهي أوابد مدن مختلفة كانت تشكل العاصمة وتعود إلى عام 800 ميلادية. وكانت كل واحدة من المدن تبنى ثم تهزم وتدمر وتسوى بالأرض، لتعود فتبنى من جديد، وتهزم وتهدم وتسوى بالأرض ثانية على يد سلسلة من الجيوش الغازية. وتوجد الأزقة الضيقة لتشاندني تشوك، حيث تسمع صيحات البائعين تتبارى فيما بينها فوق أبواق عربات تسير على ثلاثة دواليب،

وأغاني أفلام بوليوود الصدَّاحة في دلهي القديمة. أما الشوارع العريضة التي تصطف على جانبيها البيوت البيضاء المؤلفة من طابق واحد، والمنبسطة وسط حدائق خاصة فخمة، فهي موجودة في دلهي الجديدة. ويشار إلى هذه الكتل بأكملها على أنها دلهي، وتتناثر في كل مكان حول دلهي الآثار المعمارية الرائعة للامبرطوريات السابقة: الحصن الأحمر، Red Fort، كوتب مينار Kutb Minar، بورانا كيلا Purana Qila، المدافن القديمة في حدائق لودي، أبواب المدينة القديمة بما فيها بوابة شميري، والمساجد بما فيها مسجد جاما.

ومما يؤسف له أن عدداً لا يحصى من الآثار المعمارية المتبقية لماضي دلهي المدفون يجري طمسه وإزالته من الوجود بفعل التهافت على عمليات التحديث وبناء المدينة بأسرع ما يمكن[26]، وهذا ينطبق في الواقع على كل أنحاء الهند، حيث ليس هناك فعلياً من جهد يبذل لإنقاذ التراث المعماري للبلاد، فضلاً عن إنقاذ أشهر النصب التذكارية. وتتفتت وتنهار المنازل القديمة الفخمة المعروفة باسم havelis أو منازل التجار بفناءاتها الداخلية وشرفاتها المنحوتة بإتقان وإطارات نوافذها المزخرفة بالنقوش، لتتحول إلى خراب من دون إبداء أي اهتمام من جانب أية جهة؛ أو تتعرض للهدم لإفساح المجال أمام إقامة كتل إسمنتية من الشقق السكنية، ليس هناك ما يميزها. وهو يشكل برمته جزءاً من عملية الإنماء والتطوير العجولة للهند.

التنقيب في الماضي

من أجل الحفاظ على المستقبل

لم يقتصر فن العمارة الهندية التقليدية على إعطاء صورة عن نظام بيئي قديم، جمع ما بين النشاط البشري والعالم الطبيعي في الأفكار المنحوتة في أحجارها. فقد انبثقت تصاميم هذا الفن عن البيئة التي تطور فيها أيضاً. وكان لا بد من إيجاد حلول طبيعية للحالات الشديدة من الحر والبرد وللرياح العاصفة والأمطار الجارفة. وشكلت المياه مشكلة دائمة على مدار العام، فكان لا بد من الهجرة من مدينة فيتهبور سيكري الرائعة بأكملها التي تقع قرب مدينة أغرا، حيث يوجد ضريح تاج محل الشهير، وذلك عندما نفد مخزون المدينة من المياه في عام 1585.

يعمل كاران غروفر، وهو مهندس معماري، على التواصل مع ماضي الهند والغوص في أعماقه من أجل إيجاد وسائل التكنولوجيا الملائمة، التي يمكن استخدامها لاختراع مستقبل أفضل. وقد قاده اهتمامه بالتراث المعماري الغني للهند إلى قضاء عشرين عاماً في جعل المتنزَّه الأثري تشامبانر – باڤاغاد في ولاية غوجارات بالهند يدرج على قائمة مواقع التراث العالمي لليونسكو في عام (2004). وكان محمد بيغادا ملك غوجارات المسلم قد نقل عاصمته إلى تشامبانر من أحمد آباد في عام (1484)، واستغرق بناء المدينة ثلاث سنوات وضمت أسواقاً، وساحات، وحدائق ملكية، ومنشآت مائية ومساجد. وفي عام 1535 غزا هومايون المدينة فأعيد نقل عاصمة غوجارات إلى مدينة حيدر آباد، وهجر سكان تشامبانر المدينة. وكانت قد باتت خراباً تغطيها الأحراش والأشجار الكثيفة، عندما اكتشفها البريطانيون مصادفةً في عام (1803).

«لقد أمضيت حياة مزدوجة لسنوات عديدة» هذا ما قاله لي كاران في غرفة الجلوس في بيته في بارودا. كانت الجدران مغطاة بالكامل باللوحات الفنية، ومن ضمنها رسم لكاران بريشة الفنان الذائع الصيت المدرس في كلية بارودا، بهوبين كاكار». كنت أعمل من الساعة التاسعة إلى الخامسة في المكتب ومن الخامسة إلى التاسعة في مشروع تشامبانر. كنت أبقي الأمرين منفصلين تماماً، ثم أدركت أنهما مترابطان. فليس بإمكانك أن تتفادي الثقافة». وبات جلياً بالنسبة لكاران أن التراث المعماري للهند الغربية قد احتوى في الشكل المادي منه على الحكمة المتعلقة بكيفية تحقيق الانسجام ما بين العوالم البشرية والعوالم الطبيعية. وقد أدرك أن الآبار المتدرجة، لم تكن مجرد معالم حجرية فقط، وإنما أوعية لتجميع المياه الثمينة في أثناء فصل الأمطار الموسمية الغزيرة. وكانت الـ Jalis أو الستائر الحجرية المنحوتة تسمح بدخول ضوء الشمس المعتدل في حين تمرر نسائم الهواء العليلة. ونسجت الحدائق التي تبعث على البهجة بساطاً من النباتات الخضراء حول المباني.

ويقوم كاران حالياً بدمج عناصر معمارية هندية تقليدية في فن العمارة الحديث، الذي يتبناه كوسيلة لتحقيق كل من الانسجام والتناغم بين الظواهر الجمالية والبيئية. وقد حاز على الجائزة البلاتينية للريادة في مجال الطاقة والتصميم البيئي (LEED) من «مجلس البناء الأخضر» الصديق للبيئة في الولايات المتحدة لتصميمه «مركز سوهرابجي الأخضر

للأعمال» الصديق للبيئة، التابع لاتحاد الصناعات الهندية الذي نفذته شركة «غودريج» بالتعاون مع مؤسسات أخرى. وقال بتواضع: «لقد دهشنا لحصولنا على هذه الجائزة مقابل شيء كنا نقوم به على مدى ثلاثين عاماً. وأدى التصميم الذي وضعه إلى تحقيق توفير في الطاقة بنسبة (50) بالمئة. وخفض في استهلاك المياه بنسبة (35) بالمئة، وزيادة إنتاجية العاملين في المبنى بنسبة (15) بالمئة. ولا يتطلب ما نسبته (88) بالمئة من المبنى إضاءة صناعية. ويتوافر لـ (75) بالمئة من القاطنين رؤية واضحة في ضوء النهار. وعندما قام بتصميم المخطط المعماري «لأكاديمية الاديقاسيز» في تيجغاد (معهد التميز الوطني في الدراسات القبلية) استخدم الآجر فقط من دون الإسمنت. وهو يدمج الستائر الحجرية المنقوشة مع كل الباحات بشكل سخي. ويمتد مبنى اتحاد الصناعات الهندية، الذي صممه في مدينة غورغاون بموازاة حديقة طويلة تطل عليها كل نوافذه. وعندما زرت المبنى في شهر نيسان كانت الحرارة تبلغ خمساً وأربعين درجة على مقياس سيلسيوس (113 فهرنهايت) لكنها كانت محتملة في الحديقة. وهو الآن يقوم بتشييد أكبر بناء «صديق للبيئة» في العالم في مدينة كالكوتا.

ويطمح كاران إلى وضع مخطط معماري لمدينة «صديقة للبيئة» في الهند. وهو يجادل بأن «كل شيء في العالم مرتبط بعضه ببعض. فالتلوث الموجود هنا يذهب إلى هناك». وهو يأسف؛ لأنه لا توجد في الهند سياسة حماية وطنية؛ ولأن عمليات الهدم تطال عدداً كبيراً من المباني القديمة، لإفساح المجال أمام عمليات البناء الحديثة، التي تتم عشوائياً من دون تخطيط سلفاً. وقد أطلعني على صور لمبنى مكاتب شركة (ABB) التي صممها في مدينة بنغالور، حيث ألحق به أبراجاً هوائية اقتبس فكرتها من فن العمارة التقليدية في بلاد السند. ونوه بخصائصها البيئية، فأوضح قائلاً: «يدخل الهواء الساخن البرج، وبحلول الوقت الذي ينساب فيه إلى أسفل المبنى تكون حرارته قد بردت بمقدار إحدى عشرة درجة».

قطار أنفاق دلهي

مدينة دلهي هي أيضاً المكان الذي شهد وقائع أفضل قصة تروى عن عمليات إعادة إعمار المدن الهندية، قصة شبكة قطارات النقل الجماعي الحديث المثيرة للإعجاب،

والمعروفة باسم قطار أنفاق دلهي. وهناك أربع مدن فقط في الهند لديها نظام سكك حديدية مماثل لذلك المعمول به في العاصمة، وهي: بومباي، كالكوتا، تشينّاي ودلهي. وتشهد شبكة قطارات ضواحي مومباي، الأكبر في الهند، رحلات منظمة تضم أكثر من (5.5) ملايين راكب يومياً[27]. وتعد قطاراتها وسيلة الاتصال الوحيدة التي تربط الضواحي الشمالية البعيدة بمركز النشاط المالي في الطرف الجنوبي للمدينة. وهي مكتظة بالركاب على نحو بائس حيث إن رؤيتهم يتدلون خارج جوانب أبواب المقصورات تعد منظراً مألوفاً. ولدى مدينة كالكوتا نظام قديم وجذاب لطرافته يتمثل في عربات الترولي التي تسير فوق الأرض. وقد أدخلت بلدية المدينة نظاماً لقطار الأنفاق في أعوام الثمانينيات ما زال يدار بشكل ملفت للانتباه إلا أن خدماته محدودة. وتشمل شبكة قطارات مدينة تشينّاي أربع عشرة محطة تقع على سكة حديدية مرتفعة وتمتد مسافة (15.5) كيلو متراً. وتؤمّن المدن الهندية الرئيسة ومتوسطة الحجم جميعها خدمات النقل بالباصات، وهو الطريقة التي يتنقل بها غالبية الهنود الذين يقطنون المناطق العمرانية. إلا أن قطار أنفاق دلهي هو جوهرة تاج المواصلات الجماعية في الهند. والفضل في ذلك يعود إلى رجل واحد: أي. سريدهاران «مهندس الفا» كما يدعى أحياناً، وهو الرئيس السابق لشركة الخطوط الحديدية «كونكان»، والمدير «الخارق» لقطار أنفاق دلهي.

قال لي السيد سريدهاران وهو في الثانية والسبعين من عمره حالياً: «إنهم لن يدعوني أتقاعد، وعليّ أن أخدم ثلاث سنوات أخرى على الأقل، ويبدي السيد اي. سريدهاران، وهو رجل مهذب، وقد بدأ بعض الشيب يغزو شعره، ويرتدي بذة رسمية وربطة عنق، يبدي تواضعاً بشأن دوره الشخصي في نجاح مشروع «مترو دلهي»، «فنحن فريق، وقد بذل العديد من الأشخاص جهداً بالغاً لجعل قطار الأنفاق أمراً واقعاً». ولا ريب أن السيد سريدهاران كان قد قام بتشكيل فريق من الدرجة الأولى، ولكن ليس هناك من شخص في الهند، وفي العالم في الواقع، كان قادراً على إنجاز العمل الفذ الذي حققه على الرغم من كل المصاعب. فقد تم إنشاء قطار أنفاق دلهي في وقت قياسي طبقاً للميزانية المخصصة له. وكان مشروعاً مربحاً منذ اليوم الأول. ويبلغ ثمن التذكرة بحدود ست روبيات (ثلاثة عشر سنتاً)، أما المحطات والقطارات فهي نظيفة بشكل لا غبار عليه. وتنطلق القطارات في الوقت المحدد

كل ست دقائق أثناء ساعات الازدحام المروري. ويضم قطار أنفاق دلهي حتى ساعة إعداد هذا الكتاب، خمسين محطة ويقل (450,000) شخصٍ يتنقلون بين منازلهم ومراكز عملهم يومياً. واستناداً إلى السيد سريدهاران فإن قطار أنفاق دلهي سوف ينقل مليون راكب يومياً في أثناء السنوات الثلاث القادمة. وبالنسبة لأولئك الذين هم على علم بالأمور التي يضرب بها المثل عن الهند كانعدام الكفاية، ووسائل النقل العامة المتعطلة، والأماكن العامة القذرة، فإن قطار أنفاق دلهي هو بكل بساطة معجزة.

وقال لي السيد سريداهاران ونحن نجلس في غرفة مكتبه المريحة في نيودلهي بأثاثها المصنوع من الخشب المطلي بألوان العنب الداكن: «لقد أسهمت مجموعة من العوامل في نجاحنا. وكان قد أصر على أن تكون لديه حرية التصرف كشرط سابق لتولي مسؤولية العمل. وقام باختيار أعضاء فريقه بنفسه. وسعى للحصول على المشورة من خمس شركات دولية مختلفة، ثلاث من اليابان وواحدة من الولايات المتحدة، وواحدة من الهند. وأرسل فريقه إلى الخارج ليروا بأم أعينهم كيف كانت تعمل الأنظمة الأخرى «كانت هناك معارضة كبيرة لقطار الأنفاق عندما بدأنا بالمشروع. سوف يكون مكلفاً جداً، سوف يستنزف البلاد، اعتراضات على هذه الشاكلة. وقد تغير ذلك كلياً. فالجميع يريد الآن تشغيل عدد أكبر من خطوط قطار الأنفاق. وكلهم اعتقدوا أنه سوف يتسبب في حدوث استنزاف مادي كبير ولكننا حققنا، في الواقع، ربحاً عظيماً. وكنا قادرين على إعادة دفع القرض الذي أخذناه من اليابان بفائدة مقدارها (1.3) بالمئة».

إن الإنجاز الأكثر مدعاة للفخر بالنسبة للسيد أي.سريدهاران هو تغيير طريقة التفكير التي ترى أن قطار أنفاق الهند يضع مواطني دلهي في موضع المهزوم. «قطار الأنفاق يقوم الآن بتغيير الحياة في دلهي. والركاب لا بد أن يكونوا منضبطين. وهم يتعلمون آلية الاصطفاف بانتظار دورهم. القطار نظيف، والناس لا يبصقون ولا يلقون بالأوساخ، أو يحفرون على جوانبه. لقد تعلموا احترام الملكية العامة. وهم يدركون أن قطار أنفاق دلهي هو ملك لهم. «وقد علقت خلفه على الحائط خارطة لمدينة دلهي وصور لقطارات لامعة يجري قطرها إلى الأرصفة. «لقد زاد قطار أنفاق دلهي من ثروات الناس وحسن صحتهم، وهم يدركون ذلك. وقد حققت الشركات التجارية الواقعة قرب محطات القطارات زيادة في مشروعاتها

التجارية بنسبة ثلاثين إلى خمسة وثلاثين بالمئة، وارتفعت أسعار العقارات والممتلكات بنسبة خمسين إلى ستين بالمئة على امتداد شبكة خطوط السكة الحديد. وهناك انخفاض ملحوظ في التلوث وصل إلى ثلاثين بالمئة على طول خطوط سير قطارات الأنفاق؛ كما انخفضت حوادث الطرقات العامة بنسبة ثلاثين بالمئة أيضاً.

بدأ اي.سريدهاران بتنفيذ مشروع قطار أنفاق دلهي من الصفر في عام (1998)، واستكملت المرحلة الأولية منه قبل الموعد المحدد لها بثلاث سنوات، وكلفت (2.3) ملياري دولار. وأنا أعيش في منطقة ايست ڤيليج، بمدينة نيويورك. ومنذ عام (1920). وبلدية المدينة تناقش إقامة خط لقطار أنفاق جديد تحت شارع «سيكند آڤينيو». وكان هناك مؤخراً كلام من جديد عن إقامة خط قطار أنفاق «سيكند آڤينيو». وأشارت التقديرات آنذاك إلى أن الأعمال الإنشائية ستستغرق ستة عشر عاماً، وتكلف (17) مليار دولار. ولم يبدأ العمل بالمشروع بعد. وربما يجب على سلطة حاضرة مدينة نيويورك للنقل أن تتعاقد مع أي سريدهاران لتنفيذ العمل. وذلك هو ما تفعله مدن أخرى في الهند. فمدينة بومباي تريد إنشاء ثلاثة خطوط للسكك الحديد، وكذلك مدينة حيدر آباد. وقد وقعت مدينة بنغالور على اتفاقية لإنشاء خطين وكالكوتا لإقامة خط يمتد بين شرق وغرب المدينة، وتريد مدينة كوتشين إقامة بعض الخطوط. فقطار الأنفاق في مدينة دلهي لم يشكل حافزاً لإحداث تغيير في العقلية فقط، وجلب وسائط نقل جماعي من نوعية ممتازة ويمكن التعويل عليها بل رخيصة إلى عاصمة الهند، بل شجع مدناً هندية أخرى على تقبل فكرة النقل الجماعي السريع بوصفه أمراً مكملاً للازدهار، الذي تشهده البلاد على صعيد المركبات الآلية.

شقة بغرفتين مقابل 6,500 دولار

كان جي. بي. دسوزا الرئيس السابق لشبكة حافلات النقل العام المعروفة بحروفها الأولى B.E.S.T، الذي لا يزال يلقى الإعجاب والاحترام للطريقة التي أدار بها أحد أكبر أنظمة الحافلات في المناطق الحضرية، كان مشاركاً أثناء بداية السبعينيات في وضع خطة لإقامة مدينة أقمار صناعية، تكون تكملة لمدينة بومباي. وستكون مدينة بومباي الجديدة، وهي من بنات أفكار المهندسَين المعماريين ذائعي الصيت: تشارلز كوريا، شريش بيتل، وبراڤينا ميهتا،

مدينة مستقلة قائمة بذاتها تضم كل المرافق الضرورية، وتتمتع باكتفاء ذاتي بالنسبة للرجل العادي. وتم اختيار موقع المدينة الجديدة بعيداً عن زحام المدينة الأصلية، عبر البحر من جهة شبه الجزيرة الجنوبية الضيقة لمدينة بومباي.

منذ أكثر من ثلاثين عاماً كان التراجع في نوعية الحياة في بومباي يشكل في ذلك الحين أمراً مقلقاً لسكانها. ويتذكر أعمامي وعماتي مدينة بومباي في أعوام الخمسينيات كمدينة نظيفة وممتعة، حيث بإمكانك دائماً أن تحصل على مقعد في القطارات التي تسير بين المدينة والضواحي ومن وإلى مراكز العمل، وحيث تسافر الفتيات الشابات ليلاً أو نهاراً من دون أن يتعرضن للتحرش. وبعد عقدين من الزمن وبحلول أعوام السبعينيات كان ذلك قد تغير، وراقب أهالي مومباي مدينتهم الجميلة، وقد بدأ وضعها يتدهور ويسوء بفعل مجموعة من الضغوط نجمت عن تدفق سيل بشري لا يتوقف على المدينة وموقف عدم المبالاة الواضح أو العجز من جانب سلسلة من الحكومات المحلية المتعاقبة. وكل المشكلات التي يشتكي منها أهل مومباي اليوم -القطارات المكتظة والشوارع القذرة و مصارف المياه النتنة و المباني المهجورة المهملة و البنية التحتية المتداعية و الأحياء الفقيرة المنتشرة و سكان الأرصفة- كلها كانت تشكل موضوعاً مثيراً للقلق منذ ثلاثة عقود.

قام كوريا، بيتل، وميهتا، ودسوزا بتصميم المخطط المعماري لمدينة مومباي الجديدة، وقد وضعوا نصب أعينهم حاجات المواطن العادي. كما أولوا أهمية كبيرة للمواصلات العامة، والمسارات المخصصة للدراجات الهوائية والإسكان الممكن تحمل تكاليفه. ولكن المخطط لم ير النور إطلاقاً، الأمر الذي أثار خيبة أمل عميقة بالنسبة لدسوزا. وهو يأسف «أن مدينة بومباي الجديدة قد عرضت أحلامنا للنسيان. وتحولت كل طموحاتنا الرائعة تقريباً إلى شعور بالمرارة والتعاسة. وماذا عن نظام المواصلات؟ إنه لا يختلف عن أي مكان آخر في الهند. ومسارات الدراجات وخطوط الحافلات؟ إنها مهجورة ومنسية»[28]. إن غياب مسارات الدراجات الهوائية في بلد فقير يعاني تلوُّثاً حاداً في الهواء، هو أمر لافت للنظر تماماً في عملية تنظيم حركة النقل في المدن الهندية، لا سيما عندما تصبح مسارات الدراجات الهوائية جزءاً متكاملاً من البنية التحتية للمواصلات في المدن الأوروبية والأمريكية. فهناك

في مدينة نيويورك مثلاً، خطط لجعل التنقل بالدراجات الهوائية مريحاً وآمناً بشكل أكبر مما هو عليه الآن، وذلك كوسيلة للمساعدة على تقليص استخدام السيارات في المدينة.

وعلى الرغم من الانتكاسة التي لحقت بمشروع مدينة بومباي الجديدة، فإن جي.بي. دسوزا لم يستسلم البتّة، وهو يحاول عمل شيء ما لفقراء بومباي الكادحين. وكان قد حدثني العام الماضي عن مشروع آخر أكثر تواضعاً كان يعمل على تنفيذه: مجمع سكني ثمنه معقول في ضاحية غورغاون الشمالية من مدينة بومباي، كان متوجهاً إلى موقع المجمع السكني لحضور اجتماع لمجلس الإدارة في اليوم الآتي، وسألته إن كان بإمكاني أن أرافقه، فكان كريماً جداً ليرد بالإيجاب. والدكتور جي.بي دسوزا في الثمانينيات من عمره الآن، ولكنه ما زال متقد الذهن وملتزماً بالولاء لبومباي مثلما كان دائماً. وانطلقنا من شقته في باندرا حيث ركبنا سيارة صالون بيضاء تقليدية قديمة من طراز امباسادور، شمالاً إلى غورغاون. وقال لي ونحن في الطريق: إن الناشطة مارينال غور كانت قد بادرت إلى طرح المشروع في وقت يعود إلى السبعينيات، إلا أنها طلبت منه أن يتولى العمل على تنفيذه. فذهب إلى رئيس وزراء ولاية ماهارشترا، وطلب شراء أرضٍ رخيصة الثمن، كانت تعرض للبيع في غورغاون مقابل خمسٍ وعشرين روپية للفدان الواحد. واستغرق الأمر اثني عشر عاماً من أجل إنهاء المعاملات الإدارية المعقدة للترخيص للمشروع عبر الإدارات المحلية. وكانوا يعتزمون بيع الشقق مقابل (2.5) لاك (نحو 3,750 دولارات)، غير أنه بحلول الوقت الذي انتهى فيه بناء الشقق فعلياً، بلغت تكلفتها (3) لاكات، أو ثلاثمئة ألف روپية. وقال لي: إنهم يبيعونها اليوم مقابل ثمانية لاكات للشقة، وتعادل ثمانية لاكات زهاء (20,000) دولار، وهذا جزء صغير من سعر السوق الذي يجري طرحه. وتتراوح مساحة الشقق ما بين 280 إلى 320 قدماً مربعة، وهي مقسمة إلى غرفتين. وتباع شقة بذاك الحجم تقع جنوب بومباي وفي منطقة جميلة مقابل 200,000 دولار.

مررنا في طريقنا بمجمع حديث للتسوق اسمه «ذي هاب». وكان يضم دوراً متعددة للسينما ومطعماً تابعاً لشركة ماكدونالد للوجبات السريعة يمكن رؤيته من الطريق العام. وكانت أعمال توسيع الطريق قائمة، وهو يتألف الآن من أربعة مسارب. وكانت تشاهد فوق رأسينا الأجزاء الداخلية المفتوحة لأكواخ صغيرة من الآجر، قائمة على تلة جرى تقطيعها

بشكل مرتب. ومهما كانت الآلة التي قامت بعمليات الحفر أو فتح الطرقات، فقد قامت أيضاً بشق هذه المساكن الصغيرة من منتصفها بالضبط. وسالت مياه وقاذورات مجارير الصرف الصحي نزولاً من جانب التلة. وانعطفنا في سيرنا عن الطريق العام واتجهنا نحو المجمع السكني. ومررنا عند تقاطع للطريق بنساء وأولاد ينقلون حمولات من الحصى داخل سلات من القش فوق رؤوسهم من أجل رصف الطرقات. وهم من فلاحي إقليم راجستان، وكانت النسوة يرتدين تنانير مزمومة، وملابس الساري الحمراء غير المتقنة ومجموعات من الأساور البلاستيكية المصنوعة من العاج المُزيف. وبدت هذه الأزياء غريبة جداً في ضواحي بومباي البعيدة. وكنا قد مررنا عند زاوية الطريق بحانة ومطعم يطلق عليهما اسم «باريس».

وبحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى الجهة التي كنا نقصدها كان النهار قد تأخر وكان الطقس حاراً. وبدت أمامنا عند سفح تلة عالية أبنية سكنية أنيقة قائمة على ارتفاع شاهق. وسألت جي.بي.دسوزا عنها، فأبلغني أنها كانت مشروعاً إعمارياً فخماً نفذته شركة راهيجا الكبرى للبناء والتعمير. ومن الواضح أن العمل كان جارياً على إنشاء طريق جديد كلياً لربط المجمع السكني الجديد بمنطقة «ناقي مومباي» خلف التلة.

وصلنا إلى المجمع، وبينما كان السيد دسوزا يدخل إلى الاجتماع الذي جاء لحضوره جعل مهندس المواقع كيشور جوشي يأخذني في جولة في المكان. قال لي السيد جوشي: إن اسم المؤسسة التي قامت ببناء المجمع هو ناغاري نيوارا Nagari Niuara ومعناها «مأوى أهل الريف». وقال: إن الشقق كانت مخصصة لأناس يكسبون ما بين (1.50) إلى (3) أو (4) ليخات سنوياً. وكانت هناك أربعة آلاف شقة. وقمت بإجراء عملية موازنة بين هذه الشقق التي بنيت بموجب برنامج المعونة المالية للحكومة واستغرق بناؤها عشرات السنين، وبين عشرة ملايين شخص يعيشون في أحياء بومباي الفقيرة. وفي حين تمثل مؤسسة ناغاري نيوارا جهداً نبيلاً يبذل من جانب بعض المتطوعين المخلصين المتفانين، فإن المدينة سوف تحتاج إلى العمل بشكل أفضل كثيراً إذا ما كان لها أن تحل أزمة الإسكان الحادة التي تعانيها. وقال لي السيد جوشي: إن ما يصل إلى عشرة أشخاص يعيشون في الغرفة هنا، وهو النمط المتعارف عليه لإشغال المساكن في بومباي.

ثم قمنا بزيارة شقق تمر بمراحل مختلفة من الإنجاز. وكانت مبنية بالكامل من الإسمنت. ولم يكن الخشب مستخدماً تقريباً: فهو مكلف جداً؛ ولأن الجدران كانت مصنوعة من الإسمنت المسلح فقد كان يجب وضع الأنابيب والخزّانات الخاصة بالصرف الصحي وقنوات الأسلاك الكهربائية بداخلها سابقاً. وكانت الممرات ما بين الأبنية ممهدة بشكل تقريبي. وكانت السيارات والدراجات النارية متوقفة في محيط الطوابق الأرضية. وعلقت الثياب المغسولة لتجف من النوافذ محكمة الإغلاق بالقضبان الحديدية. وأخذني السيد جوشي إلى قسم أرقى وأحدث داخل المجمع، حيث كانت تباع الشقق التي تبلغ مساحتها (450) قدماً مربعة وبغرفة نوم واحدة بسعر تسعمئة روپية أو زهاء 22,000 دولار. وقد أقر بأن عدداً كبيراً من الناس اشتروا الشقة من أجل تأجيرها فقط. وهم لايعيشون هنا. ويظلون يقيمون في منطقة حيهم الفقير، حيث لديهم مجتمعهم المحلي. وتؤجر الشقق الصغيرة مقابل ألفين إلى ألفين وخمسمئة روپية شهرياً؛ أما الشقق الأكبر فتؤجر مقابل ثلاثة آلاف إلى ثلاثة آلاف وخمسمئة روپية. وهو دخل جيد بالنسبة لهم».

وهناك حافلة ركاب تنطلق كل خمس عشرة دقيقة إلى عشرين دقيقة، وتصل المجمع السكني بمحطة غورغاون للسكك الحديدية، التي يستخدمها سكان الضواحي.

وقد اتجهنا لزيارة موقع حديقة عامة ستقام مستقبلاً في محيط المجمع السكني. وكان قد جرى زرع بعض أشجار النخيل فيه، ولكنه كان لا يزال في معظمه أرضاً جرداء. كان هناك إلى الأسفل وبمحاذاة المباني السكنية منطقة مفتوحة تضم خيماً مصنوعة من قماش خشن ومواقد النار المكشوفة، التي يستخدمها العمال المهاجرون لإعداد طعامهم. وقال لي السيد جوشي: إنهم جاؤوا من شمال الهند، من قرى ولاية البنجاب وكان يعملون في بناء شقق راهيجا الفخمة. وقال جوشي: إن شركته مثلها مثل كل شركات البناء تستخدم أيضاً متعهدين مستقلين، لتأمين العمالة واستقدام عمال البناء، وهذه منطقة ترانزيت. وعندما سألته عن معنى ذلك أوضح أن العمال المهاجرين سوف يقيمون في المكان مدة كافية فقط لإنجاز المشروع، ثم ينتقلون إلى المشروع الآتي. وأردف قائلاً وهو يبتسم: «وحالما يتم تعمير هذا المجمع، سوف يرحلون».

مدن جديدة لتحديث البلاد

يتوقع آي. جي مينون مدير كلية الدراسات السكانية في نيودلهي: أن تشهد المناطق العمرانية للهند الحضرية التي تشكل حالياً (28) بالمئة من عدد سكان البلاد، تلك النسبة، وقد «تضاعفت في أثناء ثلاثين عاماً»[29]. وهذا يعني أن عدد سكان الهند الذين يقطنون المدن سوف يزداد بمقدار 290 مليون شخص أو ما يعادل عدد سكان الولايات المتحدة بأسرها بحلول عام 2036. ولابد للمدن الهندية من أن تستوعب (10) ملايين ساكن جديد سنوياً، وذاك يعادل إضافة تعداد باريس أو موسكو كل عام. وسوف يحتاج سكان المدن الجدد هؤلاء إلى وسائط نقل جماعي، كما سيحتاجون إلى مساكن، وإلى نظام للصرف الصحي، ومياه، وكهرباء، ومدارس، ومشافٍ، وحدائق عامة. وهذا وضع مختلف جداً عن الولايات المتحدة، حيث انتقل العمال المهاجرون من المكسيك وأمريكة اللاتينية إلى مدن أمريكية تشكو من توقف العمل فيها، وجلبوا معهم حياة جديدة للمدارس والمهن التجارية المحلية، التي تركها أصحابها بعد تردي وضع مزارع الأسر المحلية، أو انتقال أشغال الصناعات المحلية إلى مكان آخر.

ويعتقد آي.جي. مينون كما كان يعتقد فريق كورّيا، ميهتا، وبيتل ودسوزا في السبعينيات، أنه بالنظر إلى النسبة المتسارعة للنمو العمراني في الهند والحالة السيئة جداً لمدن الهند الكبرى في الوقت الراهن، فإن الحل الوحيد هو بناء مدن جديدة. أما كلفة مثل هذه العملية فهي تفوق إلى حد كبير جداً قدرات الحكومة الهندية. ويجب على القطاع الخاص أن يلعب دوراً مركزياً في هذا المشروع، غير أن نطاق العمل أكثر مدعاة للخوف من أي وقت مضى.

إن موكيس أمباني لا يرهبه هذا الأمر. فرئيس شركة ريلاينس للصناعات المحدودة (RIL) -أكبر شركة قطاع خاص في البلاد ينوف رأسمالها في السوق على (35) مليار دولار- يخطط لإنشاء اثنتين من المدن الكبرى، ومن الصفر، واحدة بالقرب من بومباي وواحدة قرب دلهي، وستكون هاتان المدينتان حسب تصور أمباني، جزءاً من نظام بيئي اجتماعي واقتصادي يربط المناطق الزراعية الريفية للهند بالتجمعات العمرانية للبلاد. وسيزود النظام البيئي الجديد الأعداد الفقيرة من السكان في المناطق الحضرية بما يحتاجونه وما يطلبونه، وسيقدم للملايين من أهل الريف الخدمات والفرص التي ستتيح لهم أن يتشبثوا بالبقاء في موطنهم، مما يخفف بعضاً من تدفق سكان الأرياف المحرومين على المدن.

التقيت آمباني في العام الفائت في مكاتبه المتواضعة بجوار منطقة «ناريمان بوينت» Nariman Point في بومباي؛ لأعرف رأيه في الهند في هذه اللحظة من عملية التغيير المتسارعة. وكانت هناك لوحة تجريدية نابضة بالحياة بالألوان الحمراء والبرتقالية المتألقة بريشة الفنان رازا في البهو في الخارج. وكانت هناك أيضاً صورة فوتوغرافية ملونة كبيرة لوالده دهيروبهاي آمباني، شبيهة بتلك التي رأيتها في مدرسة «DAIS»، معلقة على أحد الجدران. وعندما جلسنا على أرائك منجدة بيضاء مريحة، شاركني آمباني رؤيته للهند الناهضة. وتكمن في صلب تلك الرؤية ضرورة «إيجاد قوة شرائية وتحويل فقراء الهند إلى مستهلكين».

ويقتدي آمباني بوالده الذي تشكل مهنة تحوله من الفقر إلى الغنى، موضوع الأسطورة الهندية الحديثة «كان والدي يقول دائماً: إن السبيل لإيجاد الأهمية هو إيجاد شيء من لا شيء. وهذا ما فعله مع شركة ريلاينس. ففي حقبة سيطرت فيها المؤسسات العائلية المتوارثة على المشهد التجاري في الهند، بدأ دهيروبهاي آمباني عمله شخصية نكرة لا قيمة له، ولا يملك شيئاً. وعمد إلى تطوير شركة ريلاينس عن طريق القيام بقفزات صغيرة جداً محولاً الشركة من مصنع منتج للألبسة إلى شركة نسيج، إلى مصنع للبوليستر، وأخيراً إلى مالكة لأكبر مصفاة للنفط في الهند، وثالث أكبر مصفاة في العالم. وتم بناء المصفاة في وقت قياسي، ثلاث سنوات، فحولت الهند من مستوردة إلى مصدرة للمشتقات النفطية. كما أنشأت الشركة فروعاً لها في مجال أنظمة الاتصالات السلكية واللاسلكية؛ وكان حلم دهيروبهاي آمباني أن يجعل بإمكان كل إنسان في الهند أن يجري اتصالاً هاتفياً بسعر أقل من سعر بطاقة بريدية. وقد تحقق ذلك الحلم في العام الماضي.

ورث آمباني كلاً من طموح أبيه الذي يتجاوز المألوف في حجمه، والتزامه بخفض التكاليف إلى مستوى يكون متيسراً لكل مواطن هندي. ولا يعرف مشروعه أي حدود: فهو يؤمن أنه بتغيير الهند يستطيع تغيير العالم. وهو يركز على ما هو ليس أقل من إحداث تحول جذري في بلاده سوف يقوم يوماً ما -عاجلاً وليس آجلاً، إذا ما كان لآمباني علاقة به- بتغيير العالم. وهو يعرف أنه يجب عليه لإنجاز ذلك ألا يقوم فقط باختراع نموذج جديد، بل عليه أن ينجزه بسرعة، وعلى نطاق ضخم.

وتعتمد خطة آمباني لإحداث تحول في الهند على ثلاث ركائز: إحداث ثورة في الزراعة والبيع بالتجزئة، إنشاء مدن جديدة؛ وضمان أمن الطاقة في الهند.

وبحلول عام (2011)، سوف تستثمر شركة ريلاينس (5) مليارات دولار في إيجاد نظام توزيع يربط المزارعين عن طريق البر بمخازن البيع بالتجزئة المتنوعة الصغيرة والكبيرة أيضاً، وجميعها تستخدم أحدث وسائل التكنولوجيا. ويمثل التصور الذي وضعه نوعاً من الارتباط ما بين النموذج الذي تطرحه الشركة الهندية للتبغ ونموذج شركة بهارتي، ولكن مع تحقيق تطور فريد من جانب شركة ريلاينس ووفقاً لمقياسها المتميز الذي لا يمكن لأحد تقليده. وتقضي الخطة بتوليد (20) مليار دولار في شكل صادرات زراعية سنوياً، بالإضافة إلى تموين الآلاف من المتاجر بالسلع في ألف وخمس مئة بلدة ومدينة في أنحاء الهند. وسوف يقوم زهاء سبعين مركزاً للتوزيع بتلقي وإرسال الكميات المتدفقة من المنتجات الصادرة والإمدادات الواردة. ويرى آمباني على الصعيد الداخلي أنه سيكون هناك عائد بقيمة 25 مليار دولار في المبيعات السنوية إضافة إلى تأمين مليون وظيفة جديدة.

وثمة احتمال لحدوث الكثير من الاضطرابات. ويدرك آمباني المخاوف القائمة بصدد مصير الآلاف من البقاليات الصغيرة التي تمتلكها وتديرها الأسر، واحتمال توقفها عن العمل مستقبلاً وعجز العديد من المزارعين عن تحقيق النجاح؛ وهو يرى هذه المبادرة بوصفها «التبلور الكامل لفلسفتنا الأساسية التي تقول: «تشارك وازدهر». وكان قد ناشد الفريق الإداري لشركة ريلاينس لإيجاد حلقة طيبة من الازدهار، تؤدي عناصرها إلى تحقيق المنفعة المتبادلة، وذلك عن طريق إدخال المزارعين، وأصحاب المتاجر الصغيرة والمستهلكين في علاقة شراكة ربح متبادل ومؤكد. وهو يأمل أيضاً بأن تؤدي التغييرات التي ستحدث في قلب الريف الهندي إلى إيجاد مداخيل أعلى، ومدارس جيدة، ومرافق للرعاية الصحية، وفرص للتسوق والتسلية ستمنع عدداً كبيراً من الناس من الهجرة إلى المدن الكبرى الأمر الذي كانوا سيفعلونه في حال كان الوضع خلاف ذلك. ومع ذلك، ومع حدوث عمليات التحول والتغييرات التي يتوقعها، فإن الملايين من الناس سوف ينتقلون من المناطق الريفية باتجاه المدن. وهو يعلم أن مدن الهند مكتظة كلياً بالسكان على نحو يتجاوز طاقتها على الاستيعاب وأن بنيتها التحتية غير قادرة على التعامل مع الأعداد التي لا بد من أن تتحملها الآن. وهو

يعلم أيضاً أن التعامل مع الأمور الصعبة عبر المصالح المترسخة وتعقيدات البيروقراطية والمعاملات الإدارية يستغرق وقتاً طويلاً، وهو وقت لا تملكه الهند. ولدى آمباني حل بسيط: بناء مدن جديدة.

سوف تنفق شركة ريلاينس (11) مليار دولار، وهو أكثر مرتين من المبلغ الذي تستثمره في إصلاح الاقتصاد الزراعي للهند، ما بين الوقت الحاضر والعام (2010)، وذلك لبناء مدينتين حديثتين. وباستغلالها للشروط السخية المقدمة من حكومة الهند للشركات التجارية، التي ترغب بإقامة مناطق اقتصادية خاصة، فقد حصلت شركة ريلاينس على (140) متراً مربعاً من الأراضي الزراعية إلى الجنوب الشرقي من بومباي بمبلغ يعادل جزءاً يسيراً من ثمن الأراضي في المدينة، حيث يجري بناء مطار جديد بالقرب منها. كما يجري إدخال كل البنى التحتية الضرورية. ويصطف المستثمرون بانتظار دورهم ليكونوا جزءاً من المشروع التجاري. كما يرى آمباني هنا أيضاً أن النشاط الاقتصادي سيدر ما قيمته (25) مليار دولار سنوياً. وتمتلك شركة ريلاينس الضمانات اللازمة لجني مبلغ كبير من المال: وسوف يكون عائد الاستثمار في الأرض وحدها استثنائياً وضخماً جداً. كذلك يجري الإعداد لإنشاء مدينة مماثلة بالقرب من دلهي.

أما الركيزة الثانية في عملية التحول الخاصة بالهند فسوف تتمثل في ضمان أمن الطاقة في البلاد عن طريق توسيع مخزونها النفطي وصقل القدرات في حين يجري في الوقت نفسه التقليل من اعتمادها على وقود الفحم الحجري. وتجري شركة ريلاينس بحوثاً على بعض الزيوت النباتية مثل زيت نبتة الـ «جاتروفا» Jatropha والسيليلوز كمصادر للوقود الحيوي. ويبدو هذا طموحاً مثيراً للدهشة بالنسبة لمالك مصفاة لتكرير النفط في الهند. كما يقوم آمباني باستثمار (6) مليارات دولار لتوسيع مصفاة النفط العائدة لشركة ريلاينس في مدينة جامناغار بولاية غوجارات لجعلها الأكبر في العالم.

وتقوم شركة شيفرون كذلك بالاستثمار في مشروع التوسعة، حيث تستحوذ على حصة بنسبة (5) بالمئة في الوقت الحاضر مع إمكانية زيادتها إلى (29) بالمئة. وقد قررت الشركة الأمريكية أن من المعقول تجارياً على نحو أكبر الاستثمار في مصفاة النفط التابعة لشركة ريلاينس في الهند، ونقل المنتجات النفطية من هناك إلى الولايات المتحدة بوساطة سفن

الشحن، بدلاً من الاستثمار في زيادة المقدرة على التكرير في الولايات المتحدة أو أوروبة، حيث تجعل قيود الحفاظ على البيئة من إقامة مصفاة تكرير جديدة مسألة أصعب ومكلفة أكثر. وتقوم شركة شيفرون بالتنقيب عن النفط بصورة نشطة في بنغلاديش. ومن المرجح أن تشكل مصفاة نفط جامناغار المملوكة لشركة ريلاينس الجهة المحتملة من أجل تكرير ذلك النفط إذا ما تحقق العثور عليه. وستكون الآثار الجيوسياسية لهذا النوع من التحول في المقدرة على تكرير النفط باتجاه الهند مثيرة للاهتمام.

وكنت قد قمت بزيارة مصفاة تكرير النفط العائدة لشركة ريلاينس منذ عدة سنوات. وكان أبرز ما في الزيارة نزهة ليلية في سيارة جيب مكشوفة، عندما كان المكان يتلألأ بالأضواء كشجرة عيد الميلاد، ويمتلىء بالحركة ومعها أزيز ألف من خطوط التوتر العالي. ويحيط بالمصفاة الضخمة بناء كبير مزروع بالملايين من الأشجار، وكلها تسقى عن طريق الري بالتنقيط، بالمياه المتخلّفة عن تبريد المنشأة الصناعية. وتعد جامناغار جزءاً قاحلاً من الهند. وللحصول على المياه اللازمة لعمليات المنشأة قامت شركة ريلاينس ببناء معمل لإزالة ملوحة المياه. وأثناء موسم الجفاف، تقوم مصفاة التكرير بتزويد مدينة جامناغار وغيرها من القرى المجاورة بالمياه.

ونتيجة لخبرته في مجال التحلية فإن آمباني ليس قلقاً من حدوث نقص في المياه في الهند. «فالهند هي إحدى الدول القليلة المحاطة بمياه البحر من كل جانب. ولقد برهنا سابقاً أن بإمكاننا إجراء عملية تحلية المياه. قالها بثقة. وكانت السلطة المحلية للمياه في المدينة قد وافقت على بناء معمل للتحلية من أجل إمداد مدينة تشيناي بالمياه المحرومة منها وذلك في عام (2005). مع إرساء العقد على شركة البنى التحتية (TVRCL)التي تتخذ من حيدر آباد مقراً لها. وافتتح «المعهد الوطني لتقانة البحار» في الهند أول معمل لتحلية المياه عند درجة حرارة منخفضة في جزر لاكشادويب التابعة للبلاد. وفازت شركة (Tata) بعقد لإنشاء معمل للتحلية لتأمين المياه لمفاعل نووي في ولاية تاميل نادو. وكما أكد آمباني فإن عمليات التحلية هي الآن في سبيلها إلى تزويد الهند الفقيرة، بالمياه، بهدف تلبية الاحتياجات المتزايدة منها.

وسألته عن الجوانب السلبية، وعما إذا كانت هناك من عوائق رآها تحول دون إنجاح رؤيته الرائعة لمستقبل الهند. فقام على الفور بوضع إشارة (P) على لائحة تضم: «التعليم، قائلاً: نحن لا نستثمر في حقل التعليم. وهناك طموح هائل يحرك الأمر بأكمله في هذه الآونة، ويشكل حافزاً له، لكننا بحاجة إلى المزيد من التعليم. التوظيف: أوجدت تكنولوجيا المعلومات مليون وظيفة. وأحدثت أثراً في الأمة كلها. ونحن الآن في طريقنا إلى دخول قطاع المعرفة الشاملة في السنوات العشرين المقبلة، وسوف نقوم بإيجاد مئة مليون وظيفة. كما سنقوم بزيادة الرقم من هناك إلى مئتي مليون». وتوقف عن الكلام حتى أتمكن من إنجاز تدوين مقتطفات من حديثه. «سوف أعطيكِ مثالاً. بالنسبة لتوسيع العمل في مصفاة تكرير النفط في جامناغار، لم نتمكن من العثور على عمال اللحام المؤهلين الذين كنا بحاجة إليهم، لذا فإننا نقوم بتدريب خمسة عشر ألف عامل لحام لهذه المهمة. ثم هناك التوظيف الذاتي أو من يعمل لحسابه من أصحاب المهن الحرة، فالمزارع قد يحصل الآن على أربع روبيات ربما ثمناً لما ينتجه ويباع في ساحة السوق مقابل مئة وعشرين روبية. وإذا ما جعلنا القطاع الريفي ينمو، فإننا نستطيع أن نوجد نموذجاً جديداً يعزز الوضع المادي للمزارعين. والزراعة عن طريق العقود لن تنجح في الأمد الطويل. فأنت تحتاجين إلى إعطاء هؤلاء الناس قوة شرائية. ونحن سنقيم اتصالاً ما بين الناس الذين يزرعون التفاح وبين الأشخاص الذين يريدون شراءه. وليس هناك ما يربط بينهم في اللحظة الراهنة».

وأخبرته بأمر الأشخاص الذين كنت قد التقيتهم في ڤيداربها، حيث لم يتمكن حتى الذين كانوا يحصلون على المياه من ضخها داخل حقولهم لعدم توفر الكهرباء لديهم. وقد فاجأني مرة أخرى قائلاً: «علينا أن نتوقف عن الحديث عن شبكة خطوط كهربائية، وكاد فكي يسقط من الدهشة. لم أستطع أن أتخيل مديراً تنفيذياً لشركة نفط في الولايات المتحدة يقول هذا الكلام. وتابع قائلاً: «انسِ وقود النفط». «خذي كتلة حيوية واستخدميها لتوليد الكهرباء. كل واحد لديه مولد الكهرباء الخاص به. وعليك أن تقطعي السلك. اعملي عن طريق الاتصالات اللاسلكية. لقد قمنا بذلك في الهند مع وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية. وسوف نقوم بتكرار الأمر مع التيار الكهربائي». وهذه بالتأكيد إحدى السبل

التي يتصور عبرها آمباني كيفية تغيير النموذج المثالي فيما يخص الذي يمكن أن يغير العالم بأكمله.

وسألته عن التحدي الأكبر الذي يواجه الهند فأجاب: «إن أكبر تحدٍ نواجهه هو التحدي الذي لم يتمكن أي إنسان في العالم من إيجاد حلول له، ألا وهو زيادة الأنصاف. فهناك عبر نصف قطر طوله خمسمئة متر من مكان إقامتي، فارق في الدخل يبلغ واحداً إلى مليار. وهذا ليس مقبولاً.

وتفقد آمباني ساعته لمعرفة الوقت؛ وبدا وكأنه بحاجة إلى إنهاء المقابلة، ولكن كان لديه شيء واحد أخير، أراد أن يقوله: «سوف يكون هذا الجيل هو الجيل الذي سيصنع الهند أو سيشوهها، وهذه هي فرصتنا. فنحن مدركون للمشكلات على الأقل، ولما يجب علينا القيام به من أمور، وأنا أقول لأصدقائي الأمريكيين: إن الاستقواء على الأضعف لا طائل منه. امنحونا بعض الوقت. إنني أرى أننا نقوم بإعادة التوازن إلى العالم. فقد كان خمسة عشر بالمئة من الناس يسيطرون وعلى مدى زمن طويل جداً على خمسة وثمانين بالمئة من الثروات. وقد حان الوقت لإعطاء نسبة الخمسة والثمانين بالمئة من الناس فرصتهم. ولقد حقق عشرون بالمئة فقط من البشر تقدماً حتى الآن بالفعل. وإذا ما تمكنا من رفع هذه النسبة إلى سبعين بالمئة، فإننا سنكون قد أنجزنا شيئاً. وسوف تحدد هذه السنوات الخمس والعشرون ما إذا كنا سنحقق الفشل أم النجاح من دون أية مساعدة. إن هذا زمن فيه من الإثارة الكثير. ونحن محظوظون جداً بأن نكون مشاركين فيه».

وعاد فتفقد الوقت ناظراً إلى ساعته، وقال وهو يبتسم معتذراً: «عليَّ أن أساعد ابني في إنهاء وظيفته المدرسية. لقد وعدته. ونهضنا عن الأرائك. كان يرتدي بنطالاً أسودَ اللون وقميصاً أبيضَ له حزام عند الخصر. وصافحته وتمنيت له التوفيق: بطريقة أو بأخرى سيقوم موكيش آمباني وشركة ريلاينس، أكثر من أي رئيس شركة آخر بمفرده أو شركة أخرى بمفردها، بإحداث تغيير في الهند. وبتغيير الهند وفقاً للمقياس المقترح من قبلهما، فإنهما لابد سيكون لهما تأثير ملحوظ على كوكبنا.